رواية

مسار آخر

....

دعاء معوض

مسار آخر

الكتاب : مسار آخر

المؤلف : دعاء معوض

تصميم الغلاف : مي يسري

تدقيق لغوي : سارة صلاح

رقم الإيداع : 2014/20325

الترقيم الدولي : 978-977-6436-95-4

الطبعة الأولى : 2015



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

مسار آخر

رواية لـ

دعاء معوض



(1)

بدأ الصراخ والعويل، وتعالت أصوات السيدات وهن ينوحن حول النعش ويُشِرنَ بطرحاتهن مودعات الفقيد.

أحمد الشاب الذي خطفه الموت من براثن الحياة، لم يتجاوز بعد السادسة والثلاثين من عمره، الشاب الذي تعجَّب الموت ذاته من اختياره له وتركه لمن يستحقون الاختيار، أشقيياء يعيثون في الأرض فسادًا، وأصحاب لأجسادٍ يأكلها المرض وينتظرون زيارة الموت حتى يبرحوا الآلام التي تأبى تركهم.

كان شابًا حسن الخلق، نعم هذه سمه من سمات الموت الخبيثه، فلا يخطف منا الموت سوى خير البشر ويترك لنا أشرَّهم.

«هاجر» سيدة شابة تمتلك من العمر ثلاثين عامًا تتمتع بجاذبية في ملامحها ذات اللون الخمريّ، برغم طبعها الهادئ الرومانسي دائمًا ماتسعى لمظهرٍ يخالف طبيعتها؛ فدائمًا شعرها قصير وملابسها التي برغم أنوثتها غالبًا ماتتخذ الطابع العملي.

كانت تسير خلف هذا الجمع من النساء وأمامهن جمع آخر من الرجال، غير مكترثة بمن حولها كأنها تسير بمفردها، كتلة من السواد تكسوها، بداية من شعرها إلى أخمص قدميها، عيناها تختبئان خلف زجاج أسود، معلقتان على الصندوق الخشبي الذي يحوي زوجها، ظلت

تعاتبه وهو بداخله فقد سمحَ لها معه بسبعة أعوام فقط، كان فيهم الزوج والأب والابن،

الابن الذي طالما حَلُما به ولم يكلِّل القدر محاولاتهما بالنجاح في الحصول عليه.

للحظة نظرت لمن يحيطون بها من المودعين فلم تلتقِ عيناها بعين قريبٍ أو غريبٍ؛ فالكل في أحزانه منهمك، من استطاع أن ينفس عنها بالصراخ ففعَلَ، ومن حاول لطم الخدود بينما يمنعه الآخرون، ومن لم يستطع فِعْل هذا أو ذاك، أو حتى أن يعبِّر عن حزنه ولو بدمعة واحدة كهاجر، وكأن الدموع ترفض الاعتراف بالفراق.

اقترب النعش من مثواه الأخير، بالكاد استاطعت أن تنظر إليه لتودِّع زوجها كما يفعل أهله وأحباؤه، للحظات مرت أمام عينيها حياتها معه قبل أن يختاره الموت رفيقًا له، كم كان خلوقًا هادئ الطباع، عاشقًا مجنونًا بحبِّها، يمنحها حرية كاملة في كل شيء، ويمتلكها بغيرته التي طالما كانت تشعرها بأنوثتها،لم تشعر نحوه بالحب الجامح الذي كانت دوماً تتمناه لكنه كان معها رجلاً بمعنى الكلمه.

هبط النعش أرضًا لتخرج منه جثة أحمد محمولة بسواعد الرجال ،متكئة على دموعهم، وكثير من العويل والصراخ، وشقِّ الصدور بالأيدي، إلى أن رقدَ بسلام.

ظل الجميع يدعون له، ويرددون كلمات الوداع ويتذكرون الثواب والعقاب بقرارة أنفسهم، فهذا هو حال البشر، لا يتذكرون الحساب والعقاب إلا بزيارة القبور أو عندما يأخذ الموت عزيزًا لهم.

ذهبَ الجميع وجلست هاجر بجواره تدعو له بالرحمة أحيانًا، غير مصدقة ماحدث برمته أحيانًا أخرى، وأخيرًا وجدت الدموع طريقًا إلى وجنتيها فأخذت تنهمر منها بصراخ حاولت كظمه دون جدوى ، فظلت تبكي وتتأوه من آلام قلبها إلى أن شعرت بظلمة الليل، نظرت حولها بعينين تحولتا إلى كأسين من الدماء لتجد من كانوا متواجدين من القليلين الذين يزورون ذويهم في أوقاتٍ غير الأعياد، قد غادروا ولم يتبقَ سواها في هذا المكان الموحش.

نهضت وهي تنفض التراب المحمَّل برائحة الموت، ونظرت إلى قبره نظرة وداع ممزوجة بعتابٍ لرحيله دونها، وبدأت تبتعد شيئًا فشيئًا.

ظلت تترنح وهي تفكر كيف تعيش بدونه، كيف لها التصدي لحياة خالية منه، تبادَر إلى ذهنها العديد من التساؤلات ووسوس لها الشيطان باللحاق به، تضاعفت الوساوس بداخلها فسرعان ما استغفرت ربها، وتوقفت لتستقل سيارة أجرة كشبحٌ يهيم في الظلام.

***

وصلت إلى بيتها لتجلس على أقرب مقعد بجسد واهنٍ من شدة الحزن والألم، أخذت تنظر حولها وكأنها فقدت بصرها فقد خيَّم الظلام حولها ليتراءى أمامها بملامحه الحنونة ونظرات الحب في عينيه، متمنيًا لها حياة سعيدة هانئة، مثلما كان دائمًا يقسم عليها أن تعيش وتستمتع بحياتها إذا رحل عنها وكأن الموت أخبره بموعد اللقاء بينهما.

فجأه غاب عن عينيها ورحل معه الظلام لتشعر بإضاءة المنزل، فأغمضت عينيها ثم بدأت تفتحهما شيئًا فشيئًا كمن يجلس في مكانٍ معتم طويلًا.. وفجأة تظهر له طاقة من النور .

جالت بعينيها في منزلها الفسيح ذي الأثاث الراقي تبحث عنه وكأنه حقيقة تمثل أمامها وليس مداعبة من خيالها الحزين.

استسلمت أخيرًا لواقعها المرير فنهضت وذهبت إلى سريرها وغاصت في نومٍ عميق.

تتابعت عليها الأيام وهي وحيدة، كل من حولها يفكر كيف لها أن تتصدى للحياة بمفردها، كمجتمع شرقي ذكوري لا يفكر في المرأة إلا كونها عورة، ليست في جسدها وليس في صوتها وليس في شعرها، هذا مايظهره المجتمع دائمًا ويتحدث عنه، أما في داخله، فالمرأة كلها عورة حتى أفكارها وآرائها ربما تكون عورة، دائمًا ما تصبح الأرملة والمطلَّقة مطمعًا للرجال وحديثًا للنساء وفزاعه لهن على رجالهن، لماذا دائمًا يصر الناس على دعس الضعيف فيهم، لماذا لا ينتشلونه مما هو فيه

ليصبح أقوى ويصبح في مأمنٍ مثلهم!! ما الخطأ أن تعيش المرأة وحيدة؟ أليس هذا من حقها؟! أيحتكر الرجال حتى الوِحدة؟! لماذا لا تحيا كما تريد دون أن تُلقَى في وجهها الكلمات السمجة الثقيلة عن عِرضها؟! وكأنهم لا يكتفون بصفعة الطلاق أو صفعة الموت لها ومنحها لقب أرملة فيأتون بصفعات العِرض والشرف والتشويه!!!

مرَّ قرابة شهر ولم تبالِ هاجر إلى كل مايدور في أذهان هؤلاء، ولا كيف ينظر لها الناس وهي تعيش بمفردها؛ فحتى الآن لم تكمل وحدتها شهرها الأول، ولكن الحديث عنها قد بدأ ربما قبل أن يرى زوجها مثواه الأخير.

مرت عليها الليالي مابين ذكريات وأمنيات؛ فتارة تتذكره وتشمّ رائحته في كل خطوة لها في بيتهما الذي لم تبرحه منذ أن توفي، كان رجلًا مميزًا، تشعر أنها سيدة محظوظة، اختارها من بين النساء كي تتمتع بقلبه الحنون وعشقه المجنون، كانت تهوى النظر إلى عينيه السوداوين تراهما دائمًا في حالة حب، كان يعلم أنها تراه مثالي في أشياء عده ولكنه أيضاً كان يعلم أنها تحب حبه لها و لم تكن تحبه كما كان يتمنى.

تارة أخرى تقف أمامها الأمنيات التي كانت تتمنى تحقيقها معه، أولها أن يُرزَقَا بالذرية ويصبح لديها جزءٌ منه،

هذا الجزء هو ماكان سيحقق لزوجها أمنيته الثانية وهي ألا يورثه إخوته، فقد كانوا معه مثالًا للقسوة والأنانية، دائمًا كان يشبههم

بإخوة سيدنا يوسف عليه السلام ولكنه ليس نبيًا، لذلك لم يسامحهم وكان يسعى دائمًا لإنجاب طفلٍ من أجل ذلك الغرض تحديدًا.

لديه ثلاثة أشقاء أكبر منه بسنوات عديده تتراوح بين الخمسة عشر والعشرين عامًا مماجعلهم لايريدون تحمُّل مسؤليته عندما توفي والدهم وترك لهم الطفلَ ذا العشرة أعوام، لم تكن لديهم النية في رعايته فتركوه يتنقل بين بيوت الأقارب والجيران،

لم يأكل يومًا مايريد، فقط مطالب بأن يأكل مايوضع أمامه، أن ينام في المكان المحدد له حتى وإن كان لا يريح جسده الصغير، أحيانًا يضطر إلى سماع شجار ما بسببه في بيتٍ من البيوت التي يتردد عليها، لكنه لا يبرح مكانه حيث لم يأتِ الأمر من إخوته بأن يذهب إلى من أتى عليه الدور في رعايته.

كان أحمد دائمًا مايحدِّث هاجر عن معاناته وهو صغير كيف كان من أسرة فقيرة كل فرد فيها بالكاد يأتي بقوت نفسه، كان لا يكف عن الحديث عن كفاحه بمفرده بدون مساعدة إخوته بل أحيانًا كانوا يحاولون عرقلته، إلى أن قرر السفر إلى إحدى الدول العربية بعد أن نال شهادته الجامعية مباشرة.

كان يحاول أن يحيطها عِلمًا بكل شيء حتى لايرق قلبها لهم عندما كانوا يأتون محاولين محو سنين من العذاب هم كانوا السبب فيها، لم يسعوا لمحوها من أجل أن يسامحهم أخوهم ويعودوا إخوة متحابين،

بل من أجل ما استطاع أن يصل إليه من مالٍ فربما ينالون منه القليل، وحتى توفاه الله لم يسِئ إليهم ولكنه أيضًا لم يستطع أن يحسن إليهم.

ذات يوم فوجئت هاجر بهم يأتون إلى منزلها بعد الوفاة بوقت قليل، توقعت سبب زيارتهم وكادت أن ترفض لقاءهم غير أن والدتها التي أصرّت على الإقامة معها لفترة ألحت عليها أن تقبل لقاءهم.

خرجت إليهم متثاقلة الخطوات، تخمن ماجاءوا من أجله، ماتركه أخوهم ليس بالهين، وحالتهم المادية تتدهور كل يوم عن ذي قبل، ومنذ علمهم بالوفاة بدأت الأحلام تداعب خيالهم وبدأ صبرهم ينفد إلى أن انتهى بالفعل.

صدقت توقعاتها منذ الوهلة الأولى؛ فقد تلاشت نظرات الاستعطاف التي كانت مشبعة بها عيونهم في المرات السابقة من أجل أن تعطيهم نقودًا دون أن يعرف أخوهم، و تبدلت إلى نظرات جريئة وقحة لإحساسهم بأنهم في موضع قوة؛ فهي في نظرهم عاقر لم تستطع أن تأتي بمن يحرمهم من هذه الثروة.

تظاهرت بأنها تمتلك موطن قوة هي أيضًا رغم يقينها بأنها خاوية.

جلست بينهم وساد الصمت قليلًا حتى بدأ الأخ الأكبر يفصح عمّا جاءوا من أجله بدون مقدمات قائلًا:

- لقد أتينا من أجل ورث أخينا، وانتظرنا الفترة السابقة حتى يهدأ الحزن، أما الآن فلابد أن نعرف ما لنا وما علينا وأن نقوم بإجراءات إعلام الوراثة.

ظلت صامتة وهي تحاول منع دموع عينيها من الخضوع للحزن الراقد بقلبها، ليس حزنًا على فقدان زوجها بقدر حزنها على عدم قدرتها على تحقيق حلمه ، تراقصت الدموع بعينيها إلى أن سقطت أخيرًا على وجنتيها، نفخ أحدهم زفيره بقوة، لا وقت للبكاء والنواح فبدأ -مضطرًا- في إلقاء بعض كلمات المواساة، لكنها كانت صماء لاتسمع مايقولون، فقد لمعت أمام عينيها فكرة غريبة وازداد شرودها عنهم.

كان كل مايشغل تفكيرها الآن كيف ترتب ماجاء به عقلها في تلك الدقائق القليلة وتحاول تنفيذه، توقَّف عقلها للحظة مستغربًا نفسه كيف يفكر في ذلك، أي فكرة مجنونة هذه التي أتى بها ومن أين أتى بها، الشيطان نفسه لن يخطر ذلك بباله، لكنه عقل لامرأة، امرأة متمرده تأبى الإستسلام، وتمرد المرأة يصنع مالا يتخيله بشر.

ابتسمت وهي تنهض ناظرة إليهم جميعًا نظرة بها انتصار وتحدٍّ خالية من الانكسار والضعف اللذين شعرت بهما في أول اللقاء وكانت تحاول إخفائهما.

نهضوا بدورهم وعلى وجههم علامة تعجب من تلك النظرات المصحوبة بابتسامة صفراء،

قالت هاجر: المقابلة انتهت.

ثم سارت خطوات قليلة قبل أن يصيح أحدهم بغضب:

- ماذا يعني ذلك؟!! منذ أن جلستِ لم تتفوهي بكلمة، وعندما تنطقين تقولين المقابلة انتهت، ما هذا الجنون!!

التفتت إليه وبعينيها نظرة استهانة، ثم قالت وهي تشير إلى باب المنزل:

- اتفضلوا!!!

صاح بها أحدهم بغضب:

- من سيخرج من هذا المنزل هو أنتِ!! حقك فيه غرفة فارغة!!

ضحكت باستهانة مرةِ أخرى ثم تركتهم وذهبت.

كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض في تعجب مما تفعله وتقوله، ربما يكون موت زوجها أتى إليها بحالة نفسية، فإذا لم يكن ذلك فكيف لا تعرف وضعها الشرعي والقانوني وأنها لاتملك مما يملكون شيئًا يُذكر.

أو ربما تعرف شيئًا هم لا يعرفونه، ربما أهداها أخوهم ممتلكاته، ولمَ لا، فقد كان الحب يتمايل بينهما يمينًا ويسارًا دون أن يسقط أو يسيطر عليه شيء مما يسيطر على الحياة الزوجية بعد فترة من الوقت كالغضب، العند، البرود العاطفي، كان دائمًا حبهما هو الرابح،

جاءت تلك الأفكار إليهم سريعًا، ودون أن يتحدثوا إلى بعضهم، تركوا المنزل عازمين على اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة بأسرع وقت ممكن، فقد أصبح الأمر الآن مهمًا.

***

دخلت حجرتها وأخذت تتجول بها بملامح مسرورة وبقدمين رقيقتين تلمس الأرض في خفة، تود لو تستطيع أن تصبح شفافة لتتخلل كل شيء أمامها.

تمسك بصورة له تقبّلها في حنان مغمضة العينين، شفتاها الرقيقتان ترتعشان ثم تنظر إليه وكأنه يراها ويسمعها، وتقسم له أن تحقق له أمنيته مهما كلفها الأمر، فجأة شردت وجلست على سريرها ولاتزال ممسكة بصورته وقد اعتراها بعض الشك في قسمها هذا، لكنها حاولت أن تتماسك، وقفت أمام المرآة، نظرت إلى قسمات وجهها الجميل البريء، وكأنها تودعه، تشعر أنها ربما المرة القادمة عندما تنظر إليه لن تجده بريئًا، رأت ملامحها تنطفئ، عيناها السوداوان الواسعتان، شفتاها الرقيقتان، أنفها الدقيق، حتى قوامها الممشوق، تراه لن يبقى طويلًا.. بعثرت شعرها، وضعت يديها على خصرها وظلت عيناها تنظر إلى ملامح وجهها ثم إلى جسدها في محاولة منها أن تحفز نفسها بأنها لن تقدم على شيء خطر، بل شيء يريح زوجها في قبره، تتلاشى ابتسامتها وتجلس محدِّثة نفسها بالحقيقة: فهي لن تقدم على خطر فقط بل تقدم على اللعب بنارٍ ستكون هي أول من يُحرَق بها،

تخيلت الشيطان بصورته المعتادة في الدراما المصرية. لونه الأحمر مثل لهيب النار، ذي قرنين أو أكثر، ربما يكون له ذيلٌ أيضًا وأظافر طويلة متسخة. ينظر إليها ويبتسم وينحني احترامًا وتقديرًا لما تنتوي فعله. حرّكت رأسها يمينًا ويسارًا وكأنها تطرد مخاوفها من عقلها حتى لا تسيطر على ما أتى به.

نظرت إلى ساعتها، ووجدت الوقت قد يكون مناسبًا للبدء في أولى خطواتها.

***

دخلت عيادة طبيبها بخطوات ترتعش أحيانًا من هول ماتُقدِم عليه، سعيدة أحيانًا أخرى عندما تتخيل أنها قد تنجح فيما تريد. ولأول مرة منذ وفاة زوجها يتخلل ملابسها لونٌ آخر مع اللون الأسود ولكن على استحياء، وتتخلى عن غطاء رأسها الذي كانت ترتديه زهدًا في التزين والتألق. مجرد فكرة جعلتها تعود للحياة مرة أخرى وتغيّر نظرتها لحياتها الجديدة.

جاء دورها كما هو مدوّن بقائمة الأسماء الخاصة بمرضى العيادة، سمعت اسمها فخفق قلبها واتسعت عيناها ونهضت وسرعان ما اتجهت عيناها إلى باب الخروج من العيادة، ولكن جسدها اتجه إلى بابٍ آخر يودي بها إلى الطبيب.

دخلت تصافح الطبيب بيد باردة وعينين زائغتين ثم جلست.

- كيف حالكِ يا مدام هاجر، وكيف حال الأستاذ أحمد؟

طفت الدموع على عينها وقالت وهي تجلس:

- أحمد توفى يا دكتور.

ظهر الأسف على وجهه وقال وهو يجلس:

- البقاء لله.

قالت وهي تمسح دمعة سقطت على خدها:

- الحمد لله على كل شيء.

صمت الطبيب وهو ينظر إليها محاولا قراءة مايدور بداخلها،، قاطعت صمته عندما رأت الحيرة في عينيه وقالت بقليل من التردد:

- أعلم أنك متعجب من زيارتي، وبالتأكيد تسأل نفسك بما أن زوجها توفي، لماذا أتت إليّ!! أليس كذلك؟!

رفع حاجبيه وهو يعقد ذراعيه أمام صدره قائلًا:

- لا أبدًا، أنا أعلم أن في مثل هذه الظروف هناك أكثر من إجراء وهذا حقكِ، فإذا رغبتِ في أن تتبرعي مثلًا..

استجمعت شجاعتها وقاطعته قائلة :

- جئت إليك من أجل أن نكمل ما بدأناه سويًا.. أنا وأنت وأحمد رحمه الله.

أسند ذراعيه على مكتبه وهو يقول بتعجب:

- ماذا تعنين!! لم أفهم مقصدك؟

قالت بصرامة:

- ستجري لي العملية.

انفعل قليلًا وقال:

- يامدام زوجك توفى!!

قالت بإصرار:

- وما المشكلة في أنه توفى؟!

نهض الطبيب وانفعل أكثر وقال مستنكراً:

- وما المشكلة في أنه توفى؟! أرأيتِ من قبل امرأة حملت من شخص ميت!!

قالت بهدوء:

- بصراحة لا!! لكن يمكنك أن تعتبر أنني أول امرأة تحمل من شخصٍ ميت!

نفذ صبره فأشار إليها بالخروج وهو يصيح:

- أعتقد أن موت زوجك أثَّر على عقلك، تفضلي أرجوكِ!

وضعت ساقًا على الأخرى وهي تقول بهدوء أقرب للبرود:

-اهدأ واسمعني، أو صوتي يعلو أنا أيضًا وأصرِّح بما لدي!!

كانت كلماتها الباردة كتلًا من نارٍ تسير في جسده بسرعة وكأنه قرأ في عينيها تهديدًا واضحًا جعله يصمت ويجلس مكانه دون أن يشعر، نظرت في عينيه بقوة وهي تقول:

- هكذا يمكن أن نتفاهم، سأعطيك وقتًا تفكر في طلبي، غير ذلك، لا تلُم سوى نفسك!!

نهضت في تأنِّي وبخطوات ثابتة تاركة له الحيرة من تلك الثقة التي تملأها، ظلت عيناه تنظران إليها إلى أن اختفت، بينما عقله يفكر: ياترى أي من تلك الأخطاء التي اقترفها تعلم هي بها، ها هي سُمعته كطبيب على المحكّ، كم من خطأ ارتكبه وعندما يشعر بالندم يقسم إنه لن يفعله ثانية، لو كانت أخطاء يغفرها المجتمع ما كان ليغلق فمه بعد أن شرع في طردها من عيادته.

***

تركته هاجر في حيرته واستقلت سيارتها عائدة إلى منزلها، وبدأت تعود إلى طبيعتها وبدأت ملامحها تتبدل؛ فلم تكن هي من تتحدث معه بل

خرجت أخرى تسكن بداخلها تدافع عن حُلمها بشراسة وشعرت بذلك حينما نجحت في أن تُشعِر الطبيب بأنها تمتلك شيئًا ما سيجعله ينفّذ ماتريد، وهي في الحقيقة لا تمتلك شيئًا، بل ولا تعرف عنه أكثر مما يعرف عن مهارته كطبيب متخصص في العقم وعمليات الحقن المجهري.

تلك التي تقبع بداخلها متمسكة بحُلمها ، لن تتركها وكأنها ترفض مافرضه عليها القدر فقررت أن تسترد ما أخذه وإن كانت لن تستطيع أن تعيده بذاته فلتقتنص جزءًا منه يظل معها، هذه هي اللعبة الخطرة التي قررت أن تلعبها، أنحت رأي الدين جانبًا فقد استفتت قلبها وحدثها بأنَّ ربها يعلم أنها ستحمل من زوجها، فطفلها لن يكون ابن سِفاح بل نتاجًا شرعيًا لزواجها، الشرع يحتِّم أن تحمل المرأة من زوجها وها هي تفعل إذًا أين الخطيئة!! هل لأن زوجها توفاه الله؟ ولكن أليس مايمتكله الطبيب من أجنّة مجمَّدة هي نتاج حيوان منوي من زوجها وبويضة منها ! إذًا كونه متوفيًا لا ينفي أنه مازال يملك ذلك الحيوان المنوي.

يتبقى ما لايرتاح له قلبها بشكلٍ كبير: أنها تتحدى إرادة الله عَزَّ وجل فقد كتب لهما الله أن يعيشا مع بعضهما ويتركا بعضهما دون أن يرزقهما الذرية وها هي تسعى لتغيير هذه الإرادة ،ثم تريد أن تريح قلبها وتبرهن لنفسها أنها لا تتحدى إرادة الله فتقول، إذا كان مكتوب لها ألا تنجب من زوجها فلن تنجب مهما فعلت وهذه تكون إرادة الله حقاً، وهذا ماتعيده على نفسها كلما تحدَّث قلبها إليها بأنها لا ترضى بما

قسمه الله لها، وتعود أخيرًا لتقول: ألا يستحق زوجها منها المحاولة لتحقيق حُلمهما بقدر ماصبر بجوارها أثناء علاجها من أجل الإنجاب، ولَم يختَر أخرى وظل معها حتى توفي ورأسه على صدرها؟ ألا تستحق هي أن تعيش عيشة كريمة كما كانت، فما تنفق منه الآن مبلغ قليل مقارنة بما ستحصل عليه، وسيأتي يوم وينفذ، وتذهب نقود من يستحق لمن لا يستحق".

النقود.. نعم النقود هي ما دفعتها لما فعلته فإذا توافرت النقود كما تريدها، ربما تنازلت عن حُلم زوجها، لكنها أرادت أن تضفي على رغبتها للمال جانبًا معنويًا لتريح به قلبها.

***

بمجرد أن عادت إلى المنزل، قررت أن تكون والدتها أول من تصارحها بماتنوي فعله، فهي سيدة تتميز بعقلٍ متزن واعٍ وتأمّل هاجر أن يُزيد هذا العقل الراجح من استيعاب والدتها للأمر.

مشت باتجاهها بخطوات مترددة تشبك يديها أمام صدرها ثم تحلّهما لتمسك بخصلة من شعرها وتلفها حول إصبعها بحركة سريعة ثم تقف وتفكر في تأجيل الحديث إليها ثم وثم وثم.. إلى أن تغلبت على صراعها الداخلي لتجد نفسها أمام والدتها التي كانت تجلس مرتدية نظارتها وتقرأ كتابًا جذبها لدرجة لم تشعر معها بقدوم ابنتها.

قالت هاجر بصوت منخفض:

- ماما .. أريد أن أتحدث معكِ في موضوع مهم.

خلعت نظارتها وتركت الكتاب بجانبها والتفتت إلى ابنتها قائلة:

- اجلسي ياحبيبتي.

جلست وهي تحاول النظر إليها قائلة:

- أنتِ بالطبع يا أمي تعلمين كم أحب أحمد، ولن أستطيع أن أحب أحدًا غيره ولن أتزوج بعده، ولكني لا أريد أن يسرقني العمر، أكبر وأعيش وحدي حتى أصبح عجوزًا، أتمنى أن أكون أمًّا، كما أتمنى أن تكون معي ذكرى من أحمد..

نظرت إليها متعجبة وقالت:

- لم أفهم مقصدك لكنك مازلت صغيرة ويمكنك أن تتزوجي...

قاطعتها بضيق:

- أنا قلت لكِ لن أتزوج بعد أحمد ولن أحب غيره.

نظرت إليها والشك بعينيها وقالت:

- وكيف لكِ أن تصبحي أمًّا إذا ؟!

ترددت وهي تنظر في عينيها ثم قالت:

- كنا قد قررنا أنا وأحمد أن نقوم بعملية حقن مجهري وكل شيء كان جاهزًا قبل وفاته مباشرة، والآن الأجِنَّة مازالت موجودة وأنا ذهبت إلى الطبيب، و.. و.. و.. و.. و...

نهضت والدتها وصاحت بها مرتبكة وغاضبة متلعثمة في كلماتها غير مصدقة حديث ابنتها:

- ماهذا الجنون!! كيف تفكرين في هذا، وأيضًا ذهبتِ إلى الطبيب وصارحتِه بجنونك هذا!! هل تريدين أن تقول الناس عنكِ مجنونة هذا إن صدَّقوا الفيلم الذي تروينه هذا؟!!

نهضت واجتاح صوتها الألم قائلة :

- فيلم! ألم تصدقيني يا ماما؟!

هدأت الأم قليلًا، وقالت وهي تمسك بذراع ابنتها كي تطمئنها:

- أصدقكِ ياحبيبتي لأني ربيتكِ جيدًا، لكن الناس ستتكلم عليكِ، بالتأكيد سيقولون أتجلس مع زوجها سنينَ ثم تحمل بعد وفاته!! وقصة الأجِنّة المجمَّدة ستكون علكة في فمهم.. لن يصدقوها.. ولماذا كل هذا يا ابنتي، يمكنك أن تتزوجي برجلٍ آخر يصونك وتنجبين كما تشائين.

- ولماذا أترك نقودي لإخوة أحمد، النقود التي جمعتها معه في الغربة سبع سنين غير سنين غربته بمفرده، لماذا لا أحقق أمنيتنا أن يكون لي طفل يحمي نقودي ونقود والده.

_ إذن ليست القصه حب!!

_..............

- وهل تأكدتِ أنه سيكون ولدًا؟!

- حتى إن كانت بنتًا، هذا أفضل من لا شيء، لكني أتعشم من الله أن يأتي ولدًا.

بالكاد تمالكت الأم أعصابها وجلست واضعة يدها على خدها تنظر إلى الأرض، فجلست هاجر أمامها وساد الصمت لحظات إلى أن قالت الأم دون أن ترفع عينيها:

- أسألتِ عن رأي الدين في هذا الموضوع؟

قالت بتحدٍّ:

- لا.. لأني سأحمل من زوجي وليس من رجل ثانٍ.. حتى لو كان ميتًا، فإن حملت سيكون من صُلبه.

ثم صمتت قليلًا و قالت:

- افرضي معي يا ماما أن أحمد مازال على قيد الحياة، وبعد أن كان يصلح للإنجاب أصابه عقم، ماذا كنا سنفعل؟ هل سنكمل ما بدأناه أم سنقول هذا حرام!!

وقعت الأم في حيرة أعقبها الصمت، فتابعت هاجر:

- لماذا صمتِ؟ لأنك تعلمين أن وقتها كل الناس ستقول شيئًا عاديًا، هذا إن لم يقولوا إن الله يحبنا أن لدينا أجِنّة مجمَّدة؟! هكذا هم الناس لذلك لن أبالي بأحد، سأفعل مايرتاح له ضميري وقلبي فقط.

حركت الأم رأسها آسفة على ابنتها قائلة:

- ستجعلين منّا أضحوكة.. أنتِ تعلمين بالرغم من أن والدكِ لم يترك لنا سوى الديون قبل وفاته، ولكننا مازلنا من عائلة معروفة، سيقول الناس إنكِ تروجين للرزيلة و...

عقدت حاجبيها في تعجب قائلة:

-رزيلة؟ أي رزيلة تلك ؟انا أتحدث عن زوجي!! ولو أضطررت لأنْ أرفع دعوة قضائية حتى أنتزع حقي سأفعل ذلك.. وسأصبح أول امرأة تحتاج حُكمَ محكمة كي تحمل من زوجها!!

- حتى وإن جاء حُكم المحكمة في صالحك، المجتمع لن يتركك في حالك، لأنك يمكن أن تكوني مثلًا تقلّده أرملة أخرى تفعل مايحلو لها ثم تدّعي أنه من صلب زوجها، أتريدين أن تتحملي أوزار الأخريات؟!

- ليس الأمر بهذه السهوله،ثم السكين يمكنك أن تقطعي بها لحمًا، ويمكنك أن تقتلي بها بني آدم، المهم أنتِ فيما تستخدمينها؟!

- ولماذا تتحملين عبء تربية طفل بمفردك؟ ولماذا كل ذلك؟ الرجال كُثر.

نهضت وهي تقول بثقة:

- لن أكون بمفردي، ورثه من أبيه سيسندني ويسنده أيضًا،تصبحين على خير.

***

عادت إلى حجرتها التى اختذلت فيها منزلها الواسع، جلست وكأنها توقفت لتوها عن سباقٍ حصلت فيه على المركز الأول بعد عناء وإصرار، فتحت حقيبتها وكعادتها أخرجت منها ورقة وقلمًا، وقبل أن تبدأ في تحديد خطوتها القادمة التي يجب أن تبدأ بها، بدأت تكتب خسائر عائلتها كما تراها والدتها، لديها أخ يمتلك شركة قابضة تعد من أشهر الشركات وأنجحها ويعتبر هو من أصغر رجال الأعمال في مصر، استطاع أن يرتفع بأسهم شركة والده إلى أن أصبح لها ثقلها وزاد ثقله معها، سيرة عطرة لعائلتها سوف تسودها رائحة عفنة، ملوثة بالزنا والسفاح كما تقول والدتها.

فجأة توقفت عن الكتابة ومزقت الورقة؛ فلم تُرِد تكملة ما يمكن أن تتكبده عائلتها من خسائر وبدأت تفكر بالصغير.

أتت بصفحة جديدة ورسمت بها وجهًا لطفلٍ صغير فهي تعرف الرسم جيدًا ووضعت بعينيه حزنًا دون وعي منها ورسمت شفتين غير متباعدتين بل قريبتين حدّ العبوس ثم نظرت إليه شعرت كأنه يعاتبها، مزّقَت الورقة قِطعًا صغيرة، رأت وجهه الجميل الذي رسمته يشبه

وجه زوجها وهو ينقسم نصفين وكأنه قلبها الممزّق مابين الفعل واللا فعل.

أغمضت عينها وهي تحاول ألا تتراجع، وقد تملكها هذا الحُلم وشعرت أنها تعيش من أجله، جلست تتذكر كم كان يعشقها زوجها حد الجنون وكم أحبت عشقه لها حد تحدي الموت الذي انتزعه منها وكأنها تنتقم منه على عدم استئذانه لها أو لتركه لها وحيدة بدونه، ابتسمت حينما تذكرت كم كان يتركها تضحك بصوتٍ عالٍ خالٍ من وقار المرأة ،وكم كانت تتركه يركل الأرض بقدميه عندما تعاقبه بخصامها له، طفلان متحابان،صديقان وقت الضيق والشِّدَة، حتى ماحُرِما منه كانا يمارسانه مع بعضهما، كان أبًا لها، وكانت أمًّا له. و بعد كل خلاف كانت تضع رأسه على صدرها وتهمس في أذنيه: رجل يعني أنت، فكم رجلًا يتناول حزن امرأته كما كان يتناوله هو وكأنه فرحها.

فجأة فتحت عينها المليئتين بالتحدي، عادت مرة أخرى مَن تسكن بداخلها لتطل منهما في إصرار، فنهضت وبدأت تفكر، بدأت أولًا في طرد كل فكرة من الممكن أن تعود بها إلى نقطة البداية، فقد حُسِمَ الأمر ثم بدأت تفكر في ذلك الطبيب، الأداة الوحيدة التي بيدها ويمكن أن تحقق لها ماتتمنى.

(2)

شريف طبيب شارف على الأربعين من عمره أو في منتصف الثلاثينات هكذا يبدو، ذو ملامح حادة ونظرة تزرع الريبة فيه دون إنذار مسبق، تجعلك تحيد النظر عنه دون سبب محدد.

تعجبت كيف لم تلاحظ ذلك من قبل، ربما لأنه يتعامل مع مرضاه كالتاجر الماهر الذي لا يترك زبائنه دون أن يبيع لهم مايريده وليس مايريدونه هم، جلست تشاهد تلك الملامح الغليظة على الصفحة الخاصة به على موقع التواصل الاجتماعي (الفيسبوك) وأخذت تبحث في كل صوره وتدقق النظر في كل شيء وهي لا تعلم ما الذي تبحث عنه تحديدًا.

ثم لفت نظرها بِنْصَرِه الخالي في يده اليمنى واليسرى أيضًا الذي يدل على عدم اقترانه بالجنس الآخر حتى الآن أو على الأقل حاليًا لاتوجد علاقه لديه، لم تتوقف عن التدقيق، ولكن لم تحصل على شيء أكثر ماحصلت عليه سوى الحزن الكامن بعينيه في كل صوره رغم الابتسامة المصطنعة على ثغره.

ظل بحثها وراءه مستمرًا، حتى توصلت إلى عنوان منزله بصعوبة من خلال مساعدة إحدى صديقاتها وعلاقاتها الواسعة.

قررت ملاحقته فلا سبيل أمامها تسلكه غير ذلك ربما تعرف ما ارتعد منه بمجرد التلميح.

في صباح اليوم التالي استقلت هاجر سيارتها واتجهت إلى منزله وعندما وصلت تأكدت من حارس العقار بأنه يسكن في تلك البناية. فظلت رابضة في سيارتها إلى أن لمحته وهو يخرج من البناء، استقل سيارته وهي خلفه تريد معرفة كل خطواته وماهو السر الذي يخيفه.

تسير ولاتعلم عن ماذا تبحث وأي اتجاه تسير خلفه، لاتعلم سوى أن بيدها سرًا ولكنها لا تراه.

كان شريف له روتين يوميّ لا يتغير: يذهب في الصباح إلى الجامعة حيث يدرّس إحدى المواد في كلية الطب جامعة عين شمس، ثم يعود إلى المنزل عصرًا ويذهب إلى عيادته ليلًا وعندما ينتهي منها يعود إلى منزله مرة أخرى..

فهو يعشق الروتين.

حتى في عُطلاته يلتزم بنظامٍ صارمٍ لا يتغير؛ فيذهب إلى النادي يوميّ الخميس والجمعة ويوزّع وقته مابين لعب التنس ورياضة السير. ليس لديه علاقات اجتماعية كثيرة داخل النادي، ولكن لديه أصدقاء مقربين لا يجلس إلا معهم.

أصابها الملل والإحباط من مراقبته طيلة عشرة أيام، فلم تتوصل لشيء يُذكَر، قررت أن تتوقف عن مراقبته مؤقتًا بعد أن ملأها اليأس منه.

ظلت حبيسة غرفتها حزينة تشعر بطعنات الحياة لها ولا تستطيع فعل شيء، عقلها الذي انحنى له الشيطان يقف عاجزًا الآن أمام تحقيق الحلم الذي زرعه بقلبها ثم ارتوى بدمع عينيها على فراقه.

فقد سئمت مراقبة شريف دون جدوى، وسئمت حياتها الفارغة ، ولكنه إحباط مؤقت فهي لن تتنازل عن حلمها، ولن تترك القدر يتحكم بها ولن ترى كل ماحصدته في غربتها وهو يتسرب من يدها لمن لم يعرقوا من أجله.

تذكرت حينها كلامه عندما كان يحاول معها أن تشارك هاني أخاها في إدارة الشركة التي ورثتها عن أبيها حتى لاتشعر بالملل بينما هو في عمله، لكنها كانت دائمًا تفضِّل التفرغ له.

بالإضافة إلى سببٍ أهم: فزوجها لم يكن يعلم أنه بمجرد أن أصبح الأمر في يد هاني بعد وفاة والدها إثر تراكم الديون عليه حتى حرمها من كل شيء بداعٍ أنه من يستحق الإرث برمّته فقد أنقذ سمعة العائلة العريقة من التشهير بإفلاسها، وقد ملَّت مناقشته بين الخطأ والصواب والحلال والحرام واكتفت بموافقته الإنفاق على والدته؛ فقد كان ذلك حُلمًا في حد ذاته، مازرعته لابد أن تحصده ووالدته لم تزرع به سوى الأنانية وحبِ الامتلاك .

بدأت تحصر أملاك زوجها وتبحث في أوراقه، كان دائمًا يطلعها على كل شيء فقد كان يشعر أنها شريكة له في تلك الأموال.

جلست على سريرها والأوراق مبعثرة من حولها، لا تفقه شيئًا في مجال عمله فكانت تحاول أن تقرأ وتبحث عنه عبر الإنترنت وحاولت أن تقنع نفسها بأن حياتها قد امتلأت ولا يوجد وقت للتفكير بأي شيء.

ولكن أثناء قراءتها وبحثها عبر الإنترنت، كانت من حين إلى آخر تتسلل إلى صفحة شريف عبر (الفيسبوك) وتبحث من جديد عن شيءٍ لا تعرفه، تقلِّب في صوره مرة أخرى فلفت نظرها أن معظم صوره مع صديق واحد، يختلف معه في كل شيء.

فمنذ الوهله الأولى تشعر أنك رأيته من قبل، وجهه يجعلك تشعر بارتياح، وابتسامته تعطيك الأمل في شيء ما فقدته، يتقارب عمره من عمر شريف ربما في منتصف الثلاثينات، ذو لحية خفيفة، منحته الشمس سُمرة جذابه، عيناه واسعتان بنيتان، شعره الكثيف البني أيضًا المحلى ببعض موجات من الذهب، شفتاه المكتنزتين، بنيته القوية، قامته الطويلة.

شعرت أنهما ربما يكونان مقرَّبَيْن لكنهما لا يشبهان بعضهما البعض .

شيء ما بداخلها جعلها تتسلل إلى صفحته هو الآخر، وجدته مهندسًا مدنيًا يدعى كريم، يعمل بإحدى الشركات الهندسية المشهورة، توقفت عند تلك المعلومة واتسعت عيناها، فقد فعلها عقلها مرة أخرى، وظهرت من تسكن بداخلها تحفِّزها بما أشار به عقلها عليها، بل وألحَّ في طلبه، اتسعت عيناها وعضت على شفتها السفلى وهي تتذكر عقد

شراء قطعة أرض باسم زوجها في إحدى المدن الجديدة أثناء بحثها في أوراقه.

حصلت على رقم هاتفه النقَّال وقررت أن تتحدث إليه ولكن في اليوم التالي، ربما تكون قد هدأت دقات قلبها التي أرعشت جسدها وصنعت بداخله انتفاضة لن تهدأ الآن بعد اتخاذها لذلك القرار، قرار لا تعرف عواقبه، خطوات غير مدروسة وغير مرحَّبٍ بها من قِبَل قلبها، فكرة خاطفة جاءت بضوء ضعيف كعودٍ من الثقاب ينير لك في الظلام فقط لترى موضع قدميك وسريعًا ماينطفئ، فكرة خاطفة حاملة معها صوتًا من بعيدٍ يرفض ولكن على استحياء.

ربما تحقق لها تلك الفكرة ماتريد ولكنها ليست أهلًا لذلك، لا تملك مايجعل فكرتها تحقق مبتغاها، فهي لا تجيد التمثيل، لا تجيد التخطيط، لا تعرف سوى الحياة بلونيها الأبيض والأسود، لاتعرف الألوان الأخرى التي اخترعها بشر لا تنتمي إليهم، ليس رغبة منها ولكن لعدم قدرتها على التلاعب بغير ماتشعر به، بل ولا تقدر على التلاعب حتى بما تشعر، فكرتها تعتمد على أنوثتها وملامحها الجذابة، وعلى لهثه ورائهما، نعم لن تعرف سر الطبيب شريف إلا هكذا، أن تقترب من أحد أصدقائه فتأسر قلبه أو تصنع رغبته بها، مقامرة منها فربما يكون قلبه ملك أخرى وربما يكون ليس من حقراء الرجال الذين يسيل لعابهم أمام جسد المرأة فيشتهونه.

أغلقت إضاءة غرفتها وأغلقت معها عقلها فقد قررت أن تمضي في طريق كريم وأن تضعه جسرًا تصل به لهدفها فليصمت كل مابداخلها ويهدأ أو ليذهب إلى الجحيم.

بدأت تستلقي على سريرها وهي مغمضة العينين واضعة جسدها على جانبٍ من السرير تاركة مكان زوجها خاليًا وكأنه سيعود لينام بجوارها.

استيقظت صباحًا وهي لم تذق للنوم طعمًا. عيناها كانتا مغمضتين ولكنها تشعر بكل مايدور حولها. صوت السيارات في الشارع. صوت العصافير في الصباح. صوت والدتها وهي تسأل عنها خادمتها. وربما ارتعش جفناها قليلًا عند سطوع النهار وتسلُّل ضوؤه عبر شُرفتها.

نهضت ورأسها مثقلة بما تنتوي فعله. لا تشعر بإرهاق من بات ليلته مستيقظًا حتى الصباح. بل تشعر كأنها طفلة صغيرة انتظرت رحيل الليل بصبرٍ شِبه معدوم لتأتي الشمس حاملة معها أول يوم من أيام العيد. ارتشفت من قهوتها التي أعدتها لها والدتها وذهبت لتعطيها إياها في محاولة منها لكسر حاجز الصمت الذي أقامته هاجر بينها وبين كل المحيطين بها. ولكنها كعادتها بعد وفاة زوجها. تفضِّل احتساء قهوتها بمفردها عند شرفة غرفتها مع قليل من الشرود في كثير من الذكريات. أما هذا الصباح فكان الشرود في شيءٍ واحدٍ: متى وُلِدَ هذا العند بداخلها؟ هل منذ أن توفى زوجها أم منذ عرفت أنها ستسير في طريقٍ شاقٍ مليء بالأشواك التي اختارت أن تسير عليها دون أدنى تفكير. طريق زاخر بالمعوقات التي عليها تخطِّيها وتحمُّل كل آلامها؟ انتهت من

قهوتها فأمسكت هاتفها بيد مرتعشة وعينين زائغتين تتراقص بهما الدموع ، وقلب يملأه الوجع، تمالكت قواها وبدأت تدفع الدلال في صوتها الذي يأبى الحديث، شعرت بارتياح عند سماع صوته كما شعرت به عند رؤية صورته، شجعها قرب نغمة صوته من أذنها كمثل لحن أغنية يدخل قلبك من أول مرة وكأنك سمعته من قبل وما أنت بسامعه، نطق لسانها معلنًا عن اسمها :

- أنا هاجر، الباشمهندس كريم معي؟

- نعم يافندم أنا.

- أحتاج حضرتك في مشروعٍ، هل وقتك يسمح!!

- أنا تحت أمر حضرتك، إذا قدرتِ تستطيعين أن تشريفيني في مكتبي اليوم في الساعة الثامنة أو بإمكاننا تحديد ميعاد آخر.

- حسناً، اليوم الساعة الثامنة

كما انتظرت رحيل الليل منذ ساعات بصبر يكاد أن يكون معدومًا، فقد انتظرت رحيل النهار وغروب الشمس بصبرٍ نفد بالفعل، قررت لأول مرة منذ وفاة زوجها أن تخلع الرداء الأسود وتعود كما لو أن الحياة لم تغدر بها، كأنها لم تسرق أجمل مافي عمرها، كانت تتألم وهي ترتدي فستانها المحبب إلى زوجها الفستان ذا اللون الأحمر، لون يعبر عن دموعها ويروه الناس لونًا للإقبال على الحياة، تنظر إلى جسدها الناري وتسأل: أي حياة تلك!!! تبًا لهم جميعًا!!

تزينت بأقل القليل، فقط حتى يذوب شحوب وجهها في تلك الألوان الزائفة، بعثرت شعرها القصير يمينًا ويسارًا لعله يحصل على بعض الحيوية التي افتقدها طيلة الفترة الماضية، وقفت تتفحص نفسها وهي تتساءل: أيكفي هذا؟أم أن هناك سلاحًا آخر لم يتم الاستعانة به؟ فقد زادت ملامحها جمالًا بألوانٍ رقيقة ولفَّت جسدها بثوبٍ يُظهِر انحناءاته ويبرز أنوثتها، ضِيقه على جسدها وقِصَرِه على قامتها يصنع منها وردة حمراء نارية تروق للناظرين، فهل من مقاوم!!

خرجت من غرفتها منكسة الرأس سريعة الخطوات، وسط ذهول من والدتها وخادمتها التي رفضت أن تعاونها في ارتداء ملابسها، كانت أمها لا تريد أن تعقب على هيئة ابنتها برغم عشرات الأسئله التي كادت أن تقفز من رأسها، وحاولت أن تتفهم ما تمر به وكأنها في فترة نقاهة تسبق مرحلة الشفاء، ولكنها لم تستطع عليها صبرًا، فقالت بصوتٍ ودود:

- إلى أين ياهاجر؟

توقفت خطواتها والتفتت إلى والدتها وقالت بتحدٍّ:

- ذاهبة لمقابلة كريم.

تعجبت الأم وخطر إلى ذهنها ربما تحاول ابنتها أن تداوي جراحها بحبٍّ جديد فقالت:

- مَن كريم ؟

- صديق شريف وقبل أن تسألي مَن شريف، هو الطبيب الذي سيقوم بإجراء العمليه لي، لكنه غير راضٍ وأنا سأجعله يرضى، وكريم هو طريقي الوحيد، بذلك تكونين قد عرفتِ كل شيء.

صاحت الأم:

- ما هذا الخبل؟! هل ستفعلين مثل نجلاء فتحي في المرأة الحديدية عندما دمرت حياتها من أجل زوجها الذي مات وفي النهاية كانت مخطئة!

اقتربت منها ونظرت إليها في تحدٍّ من جديد قائلة:

- بما أنكِ تتذكرين الفيلم إذن أكيد تتذكرين بالرغم من أنها كانت مخطئة لكنها لم تندم!!

أمسكت الأم بمرفقها بشدة ألمتها قائلة بتحدٍّ مماثل:

- لكن أنتِ ستندمين!!!!

تركت مرفقها بقوة اهتز لها جسدها حتى إنها رجعت خطوات قليلة إلى الوراء، ورأت الأم في عينيها لمحة من الخوف، فقد شعرت حقًا بالخوف ولكن ليس من خوض التجربة ولكن من فشلها، حاولت أن تتماسك وتبدو قوية ولم ترد، اكتفت بالصمت واتجهت نحو الباب لتخطو ثاني خطواتها.

***

(3)

صارم.. غليظ القلب.. ذو وجه متجهم.. لايقبل بغير النظام بل والروتين أيضًا .. كل شيء له ميعاده المحدد.. لا تجادل .. لا تناقش.. ألف لا ولا..

هذا هو الحاج حسين والد شريف الطالب في السنة النهائية في كلية الطب، وهذه هي صفاته التي تعوَّد عليها شريف حتى أصبح مثله في بعضها دون أن يدري، فقد اجتاحته بعض صفات أبيه برغم وصفه لها بالقبح وتمنى لو استطاع أن يتخلص منها فقط حتى لا يشبهه ولكن هباءً يحاول. كما هباءً حاول أن تكون له علاقات، ليست علاقات نسائية، بل علاقات صداقة مع شباب في مثل عمره، ولكن دائمًا ماكان والده يعلم بذلك ويكون عقابه وخيمًا، فهذا يندرج تحت البنود التي تحوي كلمة (لا) لا للصداقات؛ فلا يفسد الشاب غير الشاب، لا للرياضة سواء ممارستها أو مشاهدتها فهي مضيعة للوقت، لا للتنزه إلا مع الأسرة وفي أماكن محددة (محترمة) كما يطلق عليها الحاج حسين، لا للقراءة إلا في التفقه في أمور الدين، وعندما التحق بالجامعة كان يسمح فقط بالكتب الطبية بجانب الكتب الدينية غير ذلك ،فالقراءة تفسد العقل.

كان دائمًا يقول له إن إحدى أمنياته كانت أن يصبح طبيبًا ولكن ظروفه أبت، لذلك فرض عليه مافرض كي يحقق له مافشل في تحقيقه. فهو يحمل شهادة جامعية لم يكن يتطلع إليها، لذلك لم

يعمل بها وتفرَّغ لمساعدة والده في إدارة متاجره المخصصة لبيع القماش.

بات شريف شخصية ضعيفة مستسلمة مستكينة، تعوَّد ألا يتذمر وأن يُفرَض عليه ما يُفرَض بهدوءٍ شديدٍ، لا يشعر بذاته إلا عندما يحقق تفوقًا في دراسته بل أصبح التفوق هو ما يدفعه كي يحظى بلحظات رضا من والده وعبارات المديح من بعض زملائه وأقاربه، يهوى القراءة فيبحث عن كتب دينية وطبية بثمنٍ بخس ليستطيع اقتناء كتب خارجة عما فُرِضَ عليه خاصة الروايات بكافة أنواعها، ينتظر سكون المنزل يعلن عن نومِ الجميع، ليبدأ في اقتناص رواية جديدة والفتك بقراءتها بنهمٍ شديدٍ، يبحث في شخصياتها عن أشياء يفتقدها وينتشي عندما يعثرعليها ويتوحَّد معها ولو قليلًا.

كان يعيش مع والده ووالدته وأخته ياسمين التي تصغره بأربع سنوات، تدرس إدارة أعمال بإحدى الجامعات الخاصة، جمالها صارخ تطعن به النساء قبل الرجال، عيناها بلون السماء صغيرة في حجمها، ولكن صغرها يجعل ابتسامتها أكثر جاذبية، بياض بشرتها متشبّع بحمرة خجلها، قوامها ممشوق لا تدري أهو ليّن أم مشدود، في كلتا الحالتين لايتضح لأحد فهو مختبئ تحت ملابسها الفضفاضة، التي تودّ أن تتخلص منها ومن حجابها ولو قليلًا ليس لشيء سوى لأنها أشياء فُرِضَت عليها منذ الصغر فحرمتها جزءًا كبير من طفولتها، فهي عار يسير على قدمين، عورة يجب سترها قبل أن تنضج وتخطف الأعين

إليها، يجب حمايتها بما يدعى (ختان الإناث) حتى وإن كانت ليس بحاجة إليه لذللك ماحدث لها لا يندرج تحت هذا المسمى بل لابد أن يطلق عليه تشويه لآدميتها، فهي لن تنسى جملة قالها والدها للطبيب قبل أن يبتر جزءًا منها حينما كانت في السابعة من عمرها:

"أنت لست تحتاج إلى توصية يا دكتور!!!"

لم تفهم وقتها معنى تلك الجملة إلا حينما شرحت لها زميلتها في المدرسة الثانوية فائدة الجزء المبتور في تباهٍ منها بأنها تحتفظ به، الآن فقط فهمت معنى جملة والدها فهو لم يكتفِ بالختان بل أمر بتشويهها. لم تسامح والدها قَط على مافعله بها، لكنها التمست العذر لوالدتها التي حاولت انتشالها من شيء مجهول، حدثها كأم كان يرفضه، فقد سمعتها وقد استجمعت شجاعتها وقالت لوالدها بصوتٍ منخفض متهدج مرتعش:

- لو أذنت لي أريد قول شيئًا.

نظر إليها بدهشة وقال بصوته الغليظ:

- قولي .

-أنا أرى أن الختان أصبح عادة قديمة، وأنا سمعت في التلفاز أنه يؤذي الفتيات بعد الزواج وأنه يقتل رغبتهن في...

- من قال هذا الخرف، هذا أمان لها ولنا أم تريدنها أن تجلب لنا العار؟!

-التربية هي الأصل، والله أنا أشعر أننا نؤذيها. أخاف أيضًا من حدوث نزيف أو شيء يشبه ذلك، أخشى أن نفقد ابنتنا.

- -الدين يقول إن الختان مكرمة للبنت.

-هذا إذا كانت تحتاج إليه، لكننا عرضناها على طبيبة وقالت ليست في حاجة لذلك، بالإضافة إلى أن الطبيب الذي سيقوم بذلك لا أشعر تجاهه بارتياح.

- أنا أرتاح إليه وهذا يكفي، ولا أقتنع بالطبيبات.

-لكن..

انفعل قائلًا:

- خلص الكلام، اتفضلي من هنا.

كانت دائمًا تتذكر تلك الكلمات ولا تفهمها إلى أن نضجت وغزلت خيوط مأساتها ببعضها لتنتج فجيعة جديدة تتحملها بمفردها، تشعر أنها ليست أنثى عندما تتذكرها، ولا تعود إليها أنوثتها إلا عندما تختلي بنفسها فتحدد جسدها بملابس ضيقه وأحيانًا تختلس من قمصان والدتها القديمه التي تدل رائحتها على عدم ارتدائها منذ سنوات عديدة

لتصبح ذكرى وتصبح بالنسبة لياسمين أولى الملابس التي تعتلي جسدها فتجعلها تطيل النظر إليه وتفترس تفاصيله بعينيها، تقوم بتشغيل التلفاز لتبحث عن أغنية تتمايل عليها فتشعر بتميُّز جسدها وجمال انحناءاته. تستمتع بتلك الخلوة التي تكررها يوميًا حتى لا تنسى أنه مهما طالها فهي في النهاية أنثى.

يضع الأب محاذير لجميع مَن في المنزل بما فيهم الأم التي يجب عليها الامتثال للتعليمات وتطبيقها بل ومراقبة تنفيذ أبنائها لها، فهي لاتملك شخصية مستقلة منذ صغرها، دائمًا تتبع الرجال، كانت تتبع أبيها وأخيها وبعد أن تزوجت اتبعت زوجها وهذا ماكان يبحث عنه. لم يكن يبحث عن زوجة وشريكة للمستقبل بل عن تابعٍ.

تابع لا يرى لا يسمع لا يتكلم لا يناقش لا يغضب لا يثور لا... لا... لا... لا... يرى أولاده دائمًا كبرتقالة موضوعة في زجاجة يتعجب الجميع كيف دخلت من عنقها!! لكنهم لا يعلمون أنها حينما وُضِعَت كانت بذرة ليس إلا!! زرعها في زجاجة حتى لا تستطيع أن تخرج إلى الأبد إلا إذا تم كسر تلك الزجاجة، وهو أمرٌ ليس مطروحًا لديه.

نتج عن تلك الزيجة شاب وفتاة تشبّعا منذ الصغر بالقهر، لم يعرفا لكلمة الأب معنى، يتأرجحان بين قسوة الأب وحنان الأم، فهي التي تداوي مايكسره بداخلهما حتى باتت ترى كل منهما وكأنه شبحٌ، تشعر به يجلس، يأكل، يشرب، يفعل ويفعل ويفعل دون أن تراه؛ فقد أصبح لكل منهما عالمه الخاص داخل حجرته.

تمنى كلٌّ منهما أن ينتهي من ذلك الحارس الغير أمين عليهما منذ الصغر، فقد أصبح أبًا دون أن يعرف كيف يحافظ على أطفاله منه أولًا، وفي الكبر كان يشعر بفتور مشاعرهما تجاهه خاصة عندما يمرض، وللحظات نادرة يتألم.

لا تستحلّ القسوة حتى لا تُغمَر بها أنت، ولا تستحلّ قتل القلوب فيُطعَن قلبك أولًا ويُترَك لينزف حد الموت.

في غمرة لحظة من لحظات الندم، حاول لملمة ما تبقى من لوحة جميلة وُضِعَت بداخل إطار زجاجي فحطمها وتناثرت شظاياها على مدار أربعة وعشرين عامًا هي عدد السنين التي عاشها شريف حتى الآن، فطلب من زوجته أن تأتي به .

دخل شريف حجرة والده على استحياء يرتدي بجامته الرمادية اللون، يعدل من وضع نظارته بيديه اليسرى ويمثل أمام والده كمتهم يمثل أمام القاضي، حاول والده أن يضفي بعض الحنان على صوته وسأله عن دراسته وفي عجالة سأله عن أحواله الشخصية ثم قال:

- هذه آخر سنة لك في الجامعة، وأريد منك المزيد من التفوق والنجاح، وأريد أن أبلِّغك شيئًا، سأترك لك اختيار مجال التخصص الذي تريده، فما كان يهمني أن تصبح طبيبًا، وبعد ذلك ستكون عيادتك هدية مني لك.

سعد شريف كثيرًا وانفرجت أساريرِ وجهه في التوِّ واللحظة، ونظر لوالده َ بامتنان، فكم كان يتمنى لو يعطيه والده فرصة اختيار تخصصه.

بالإضافة إلى منحه عيادة خاصة به، شكره بحرارة وودٍّ لو يعانقه ولكن الحاجز الذي صُنِعَ في كل تلك السنين وقف حائلًا بينهما، و شعر والده أنه حقق ماتمناه وأنه ربما يكون قد لامس قلب ابنه لأول مرة.

(4)

طرقت هاجر الباب وفتح لها كريم، ارتبك للحظة، فقد ألقى عليها نظرة خاطفة، جعلت شهيقه يسارع زفيره، وتتدفق دماؤه إلى أطرافه في لحظات، لم يشعر بتلك الومضات قبل تسعة أعوام عندما انتهى حبه الأول وقرر المضي في سنة الحياة بزواجٍ لا يُشبع قلبه من جوعٍ لمشاعر جياشة لا يعترف بالحب إلا بوجودها.

وارتبكت هي أيضًا فقد انتابها ماشعرت به عندما حدثته لأول مرة، تقترب ملامحه منها وكأنها كانت معه منذ قليل، اقتحم لحظات الاضطراب والصمت متسائلًا:

-مدام هاجر؟

-نعم.

-تفضلي.

قالها وهو يشير إليها بالدخول إلى غرفة مكتبه، سارت وهي تطلع حولها محاولة أن تستكشف مما تراه خيطًا ما يدل على شخصيته أو إلى أي مستوى اجتماعي ينتمي.

وجدت المكان ذا أثاث راقٍ يبدو عليه الحداثة، يعتني بكل ركنٍ من أركانه، ويزين حوائطه بلوحات بسيطة أنيقة، تنعدم رائحة المكان

لتذوب في عطره الذي اقشعرَّ له بدنها وانتشت به روحها، جلست وعيناها معلقتان عليه وهو يجلس على مكتبه ثم قالت:

- من الواضح أن اليوم يوم إجازتك.

- نعم هو كذلك، لكني أتيت أيضًا لأن لدي بعض الأعمال.

اختلس نظرة سريعة إلى يدها اليسرى ليجد خاتم الزواج في بنصرها، شعرت بنظرته فارتبكت وانطلقت منها الكلمات وكأنها ترد على تلك النظره:

- أمتلك قطعة أرض في التجمع الخامس وقررت أنا وزوجي بناء فيلا بها.

اتخذ كلاهما الطابع الجدّي وقد نحى كل منهما شعوره الخفيّ جانبًا، كان يستمع إليها جيدًا وهو ينفث دخان سيجاره، وكانت تتحدث وكأنها تريد بناء فيلا فعلًا، تسأل عن كل شيء وعن التكاليف والإجراءات المطلوبة.

انتهت المقابلة واتفقا على أن يلتقيا مرة أخرى لكي يرى قطعة الأرض التي سيقام عليها المشروع، حيَّته بابتسامتها الساحرة من ثغرها الصغير ثم انصرفت منتشية، تستقل سيارتها وهي سعيدة بثاني خطواتها، فقد شعرت بنظرات الإعجاب في عينيه واختلاسه نظرة إلى يدها لمعرفة حالتها الاجتماعية، لكن لم يتضح لها بعد من أي نوعٍ من

الرجال يكون، ولكن لم يشغل بالها ذلك كثيرًا بقدر ماشغل بالها هل هي تسير في الطريق الصحيح، هل ستصل من خلال كريم إلى السر الذي ارتعد من أجله شريف، بل هل يوجد سر فعلًا، توقفت عن التفكير للحظات ثم عادت تطمئن نفسها، فما رأته من خوفٍ على وجهه عند ذِكر شيء يخفيه لايخطئه أعمى، بالتأكيد يوجد سر ولكن هل يعلمه كريم؟أم أن كل ماتفكر به سيصبح أوهامًا خلقتها وعاشت بها وركضت خلفها دون جدوى، ولكن هل من طريقٍ آخر أمامها سواه؟ هل هناك طريقة أخرى تحفظ بها مالها ؟ فقد أوصدت بابها أمام الزواج فلن تجد رجلًا يعشقها ويحرص على إرضائها مثل أحمد، وإن وجدت فلماذا تترك النقود التي اعتصرتها الغربة من أجلها، تذهب لمن ليس لديهم رحمة.. كلا لابد أن يأخذ كل ذي حقٍ حقه.

صعدت إلى منزلها تفتح بابه بوجهٍ لا يملأه الخوف كما كان وهي تتركه لمقابلة كريم، وجدت والدتها تنظر إليها نظرة مبهمة لم تفهم منها هاجر شيئًا أهي نظرة أسف عليها أم لوم أم غضب، وقفت للحظات لعلّ أمها تتفوه بكلمة تفصح عن مغزى نظرتها، لكنها لم تنطق بشيء، فتركتها وذهبت إلى غرفتها.

***

أخرج رقم هاتفها وكاد أن يتصل بها ثم أغلق الهاتف وهو يتساءل ما الداعي وراء تلك المحادثة، ماهو السبب الذي سيحادثها من أجله، وأخذ يتساءل لماذا أراد أن يفعل ذلك؟

هل لأنها أيقظت بداخله مشاعرَ كان يظنها ماتت، ربما ذلك!!

فما شعر به تجاهها هجره إلى الأبد منذ أعوام ليست قليلة، لذلك حينما تزوج دون تلك الأحاسيس المتوهجة لم يفلح زواجه، ولكنه استمر من أجل التوأمين اللذين لا ذنب لهما سوى عشق والدهما للعشق ذاته .

فقد كان عاشقًا قبل لقاء أمهما، لفتاة كانت هي كل ما يملك، لايشعر أنه يمتلك سواها ولا يشعر بذاته إلا بوجوده معها، يحلم ببيتٍ هي ملكته وهو خادمها، يفيق على أنفاسها بجواره فيدعي أنه يحلم بأنها على فراشه، لكنه كان في مقتبل مستقبله، تخرج حديثًا من كلية الهندسة، مستواه الاجتماعي والمادي كان جيدًا، ولكن ليس بالذي يتحمل أوامر والدتها، وطلبات أبيها المادية بل وطلباتها هي أيضًا، فقد كانت في مستوى يفوقه، حاول أن يقفز قليلًا حتى يصل إليها لكنها لم تساعده، تركته يقفز إلى سماء عشقها ليسقط على أرض هجرها، فيترنح في الشوارع لياليَ طويلة لايرى سوى مستقبلٍ تائهٍ وحياة بغيضة لا تشتهيه ولا يشتهيها.

ثم يفيق على صفعة وفاة والده فتكون الإفاقة الكاملة وتكون تلك هي الصدمات الكهربائية التي أنعشت قلبه الذي توقف لأعوام.

قرر أن ينساها ويقسو على قلبه فبعض الأحجار خُلِقَت لتُوضَع على القلب.

أخذ على عاتقه تحمُّل مسؤلية أمه وأخيه إلى أن تزوَّج أخوه وبدأ الإلحاح عليه في أن يتزوج؛ فقد تعدَّى عمره الثلاثين عامًا.

صنعت له الحياة صدفة ليلتقي بسمر، أحبها لما فيها من صفات كريمة تصلح بها لأن تكون زوجة ولكنها لاتصلح لأن تكون الحبيبة التي يتمناها بل وأحيانًا لايراها الزوجة التي كان يتمناها أيضًا، فقد طلب منها مئات المرات أن تعتني بأشياء بسيطة هي عنوانٌ لجمال المرأه كتقليم أظافرها والاعتناء بها وطلائها كسائر النساء، وألحَّ عليها في تغيير لون شعرها، وارتدائها ملابس أكثر أناقة وأنوثة، كان دائمًا يبحث لها عن شيءٍ يجعله يرغب بها بالشكل الذي يحبه ويرضاه وكانت هي بالغباء الكافي لرفض كل ذلك بل أيضًا وتأتي بنقيضه.

كانت طباعها حادة في بعض المواقف التي تجمعها مع أصدقائه وزوجاتهن فيضيق صدره بها ويتعمّد إحراجها أمام الجميع حتى تكف عما تفعل لكنها لم تبالِ وتكرر أخطاءها، فما كان منه بعد مرور عامٍ من الزواج إلا أن يشعر بأن تلك الحياة ليست التي كان يحلم بها واختفى حبه القليل لها بل وأصبحت لا تمتلك في قلبه سوى الحب الذي يأتي من العِشرة والتعود ليستسلم لقدره خاصة بعد حضور التوأمين.

ذكَّرته هاجر بمشاعر قد أوصد عليها بواباتٍ من حديد وجعلته يلتفت إليها دون أن يدري برغم علمه بأنها متزوجة.

عاد كريم إلى بيته وقلبه ثقيل بالذكريات والجروح التي تركتها له تجربته السابقة، لم تكن الجروح من أجل الفراق أو غدر إنسانة أحبها بشدة، بل يتألم من أجل جرح قلبه.

وجد سمر بانتظاره كالمعتاد بالشكل الذي يناسبها وليس بالشكل الذي يرضاه، لكنه لم يغضب فقد مرَّت ثلاثة أعوام على زواجهما ولم تفهمه بعد بل وتزداد عندًا وغباءً.

ألقى عليها التحية ومارس طقوسه اليومية، أزاح عن جسده تعب اليوم كله وظل واقفًا تحت الماء كأنه ينتظر أن تمحو ما ألمَّ به فجأة من آلام. تناول وجبة العشاء في صمتٍ وشرودٍ، حاولت سمر مداعبته فيبتسم في مجاملة منه ويعود إلى شروده مرة أخرى إلى أن شاهدا ولديه قد استيقظا وجاءا مهرولين إليه في مرحٍ وسعادة، فعانقهما وأخذ يمرح ويلعب معهما وسط استياءٍ من سمر فهو لم يبتسم إلا بحضور الطفلين، فلَمْ يوارب الجرح بابه إلا عندما رأى هذين الملَكَين.

***

استيقظت هاجر في صباح اليوم التالي على رنين هاتفها، أجابت دون أن تنظر إلى اسم المتصل وبجفنين لم يريا النوم الكافي فكان مزاجها متعكرًا.

- نعم.. من؟!

ارتبك قليلًا من نغمة صوتها فأجاب:

- آسف لو أزعجت أنا كريم.

اعتدلت في جلستها ثم رققت من صوتها قائلة بلطفٍ:

- أهلًا يا باشمهندس.

- من الواضح أنني أيقظتك، أعتذر مرة أخرى، فقط أردت أن أذكّرك بميعادنا.

نظرت إلى ساعة هاتفها ثم عادت تقول :

- جيد أنك أيقظتني، سأنتظرك في المكان المتفق عليه.

أغلقت الهاتف ونهضت سريعًا إلى الحمَّام وهي سعيدة بتلك المحادثة فهذه بداية جيدة، إن لم تُحدِث أثرًا في نفسه ما اتصل بها دون سببٍ يُذكَر، تسيل المياه على جسدها وتتدفق الأفكار إلى عقلها، ترى ماتُقدِم عليه بعينٍ ليست لها وكأنها تشاهد فيلمًا هي ليست بطلته، تتوحد مع البطله وتصفّق لها حين تفعل ما تريد، وعند انتهاء الفيلم يضيء المكان حولها وتخرج من معايشتها للأحداث، تنتظر أن تتراجع لكنها لا تفعل.

شردت في أفكارها حتى انتبهت عندما أصبحت المياه الفاترة باردة كالإحساس الذي تشعر به وهي تتلاعب برجلين أحدهما بدأ يخافها

والآخر بدأت تروق له، تتمنى لو تخرج قلبها وتضع شموعًا تنير لها الطريق الشائك الذي اختارته ثم تنصهر عندما تصل إلى ماتريد، فقد أصبح قلبها في الظلام الدامس، تريد منه فقط معرفة طبيعة نظرات كريم لها، فبالأمس كان يحدّثها قلبها عمن ينظر إليها لذاتها ومن ينظر إليها لشيء آخر، أصبحت الآن مشوشة لا تعرف شيئًا وهي التي تريد أن تصبح مستعدة في كلتا الحالتين لأنها في النهاية لاتريد خسارة المعركة، فهي بداية الحرب.

كعادتها اليومية تحتسي قهوتها شاردة أمام شرفتها لكن شرودها هو المتغير، فكل يوم تشرد في خطوتها القادمة وهي تتمنى أن تجد لشرودها حدودًا.

انتهت من قهوتها لتبدأ في تزييف ملامحها وتزينها، تشعر أنها كالممثلات تستعد لتنفيذ دورها فتبدأ بالاهتمام بالمظهر الخارجي للشخصية وتترك التمثيل يكون ارتجاليًا.

اختارت أن تبدو اليوم مختلفة عن المقابلة السابقة، فارتدت بنطالًا "جينز" و"بلوزة" قصيرة الأكمام عارية الصدر إلى حدٍّ ما، تركت لشعرها العنان وارتدت نظارتها الشمسية السوداء، وخرجت بحذرٍ من غرفتها تسير على أطراف أصابعها خشية لقاء أمها وتلقيها نظرة مماثله لنظرة الأمس المبهمة.

***

بدأ كريم في ارتداء ملابسه أمام المرآة وهو يفكر في أفعاله الصبيانية. ماهي حجته كي يتصل بها، لماذا تحمله مشاعره إليها بتلك السرعة، لا ينكر أنها قد أضاءت شيئًا بداخله لكنها لا تصلح له، فهي زوجة لغيره بل وتخطط لمستقبلها معه ببناء فيلا جديدة يعيشان فيها سويًا، لماذا يترك قلبه يقوده الي علاقة يعرف هو نتيجتها، كما فعل في علاقته السابقة فتألم بل ضاع وتاه وعاش يعتقد أنه لن يصلح للحُب مرة أخرى فأدى ذلك إلى لجوئه لحضن غير دافئ يشعر في غيابه أكثر مايشعر في حضوره، حضن بارد لامرأة جعتله في بيته كآلة يلبي احتياجاته من مأكل ومشرب وملبس، حتى احتياجات سمر ورغبتها به فهو يلبيها دون حب صادق حقيقي، دون مشاعر تحرِّك أفعاله، ما كان يحركه فقط غريزته، يتبعها عندما تجتاحه الرغبة بشكل فظ، يكرهها وينفر منها دائمًا لكن لا تمنعه عنها فقد أصبح لا يرى تلك العلاقة سوى علاقة رجل بامرأة، أي رجل وأي امرأة.

***

ظلت هاجر في سيارتها تنتظر قدوم كريم، تنظر من حين لآخر في المرآة، تتحس شفتها لتضبط اللون الزهري الذي يغطيهما، تلمس شعرها من الأمام بأطراف أصابعها ليغطي جبهتها إلى أن باغتها بتوقُّف سيارته بجوارها قائلًا:

- ها تأخرت عليكِ؟

ابتسمت قائلة:

- لا.

نزل من سيارته و فتح باب سيارتها، نزلت لتنشر عطرها الرقيق حوله فظل صامدًا مستمتعًا بعطرها الساحر ومظهرها الرائع وكأنها امرأة أخرى غير التي قابلها من قبل، تتمتع بالمظهر العملي الحيوي، لكنها تسير في تمهل يحرك جسدها في نعومة ورقة، لا يهمه جسدها كثيرًا بقدر مايشعر به من أنوثة طاغية لا تتمتع بها سمر، استدارت إليه ببطءٍ متعمد وقالت وهي تشير إلى قطعة الأرض:

- ما رأيك؟

تفحص الأرض جيدًا ثم قال:

- ممتاز، الأرض تصلح لبناء فيلا، والمكان هادئ، والأطفال ستمرح وتتمتع بالخصوصية.

صمتت وشعرت بغصة في قلبها، تلاشت ابتسامتها وذبلت ملامحها في ثوانٍ، لمعت في عينيه فرحة على استحياء فيبدو أن ليس لديها أطفال أو كان لديها وتوفي ثم انطفأت لمعة عينيه فربما يكون لديها طفل مريض أو ربما وراءها قصة لا يعرفها، سألها ليقطع شكوكه التي نهشت عقله:

- هل قلت شيئًا خاطئًا، هل أنا أزعجتكِ؟

قالت وهي تتلافى النظر إليه:

- ليس لدي أطفال.

كاد أن يفصح ثغره عما بداخله وترتسم عليه الابتسامة فسرعان ما انتبه قائلًا :

- أعتذر، ولكن على كل حال.. لا يوجد أحد خليّ البال.

ابتسمت مجاملة منها قائلة:

-أكيد.

حاول أن يجذبها بطريقته المرِحة إلى الخروج من تلك البقعة الحزينة التي دفعها إليها قاصدًا فقد كان متعمدًا إلقاء كلمة أطفال ليرى مدى وقعها عليها ويعرف أكثر عنها، ها هو الآن قد علق قلبه أكثر بها فإن وقع في حبها ووقعت معه فيصبح الأمر أسهل بدون وجود أطفال إذا أرادت ترك زوجها لتتزوج منه، لكن يتبقى أن يعرف أكثر عن علاقتها بزوجها هل هو لها مجرد زوج تكمل حياتها معه فتضطر للتخطيط لها، معه أيضًا، هل كان حبيبًا لها قبل الزواج ومازال أم أصبح كأغلب الرجال يهملها ويملها لتتحول هي كأغلب النساء إلى أنثى بعاطفة باردة، وريح قوية تعصف بسفينته المرساة على قلبها.

سألها بدون تردد:

- توقعت وجود زوجك اليوم.

ظهرت عليها علامات الارتباك والألم، كان ارتباكها ناتجًا عن عِلمها بأنها على وشك كذبة جديدة في عالمٍ جديد اختلقته خصيصًا من أجل أن يخلو من الصدق وكان ألمها من أجل تذكرها لوفاة زوجها سبب آخر لارتباكها، كانت أول مرة تشعر بكلمة أرملة، الكلمة في حد ذاتها كانت تجعل منها ملكة بلاقصر، تحكم مدينة بلا ناس فلا تشعر بقيمتها، فسَّر ماراه من أسفٍ وارتباك على وجهها كما تحبه نفسه أن يكون، فغرست في عقله أنها ربما تكون على خلافات معه، ربما تعيش معه دون حب، فتكون هذه فرصته ليقتنص قلبها كصيَّادٍ ماهرٍ يمكث مترقبًا لفريسته في غابة تكتظ بالأشجار يختبئ بينها ثم ما إن يرى فريسته حتى يصوِّب سهامه في قلبها وإن كان ذا حظٍ فسيقتنصها ويكبح زمام أمرها مهما كان مالكها.

ردَّت عليها باقتضاب:

- زوجي مسافر.

ثم تركته عائدة في اتجاه سيارتها تحاول ألا تتذكر سوى الدور الذي تقوم به، فحاولت أن تقتحم حياته الشخصية لتخطو نحو مرادها فسألته بعد أن لحق بها:

_ هل لديك أطفال؟

_ نعم

-شعرت ونحن نتحدث عن الأطفال أن أولادك أشقياء.

ابتسم قائلًا:

-فعلًا..

بدأ الحديث بينهما يتطرق إلى أشياء شخصية، ومحاولة معرفة كل منهما لطبع الآخر، وميوله الأدبية والفنية اشتركا في حبهما للأغنيات القديمة وقراءتهما للروايات الرومانسية، واختلفا في أشياء أخرى كنظرتيهما للحياة ذاتها، هو يستطيع أن يعيش من أجل امرأة يهب لها كل حياته وهي تضحي بكل شيء من أجل المال ورجل ميت.

هو يبحث عن الحياة.

وهي تختار الموت.

ظلا يتحدثا قرابة ساعتين لم يشعرا بالوقت، ولم يشعرا بغروب الشمس إلا بعد أن أسدل الليل ستاره الأسود حولهما، مرت علها لحظات قليلة غاصت فيها إلى عالمه وتحدثت من قلبها عن أشياء تحبها وأخرى لا تهتم بها وكأنها انفصلت عما جاءت من أجله إلى أن تعود إليه في لحظات أخرى، فكانت تركز بشدة في كلماته حينما يتحدث عن سمر مصادفة، فلا يتضح لها إلى أي مدى يرتبط بها، أهو ارتباط قوي أم ضعيف، اجتهدت في معرفة ذلك وكانت أحيانًا تحاصره بأسئلتها إلا

أنه كان مراوغًا جيدًا، وخبيرًا بالنساء أيضًا ففضح رغبتها في معرفة ذلك فأبى أن يهدئ لها بالًا، فهو يشعر أنها غير سعيدة مع زوجها لكنها تتظاهر بعكس ذلك بل وتجيب عليه باقتضاب وكأنها منطقة محظور عليه الاقتراب منها، إذًا فلماذا تقترب هي من منطقته المحظورة!!

في الحقيقة، سمر بالنسبة إليه ليست منطقة محظورٌ عنها أو متاحًا بها السؤال، ما هي إلا منطقة يود أن تكون ملكها لكن ليس الآن.

حتى الآن لم تأتِ بلوزتها عارية الصدر بما ارتدتها من أجله؛ فهو لم ينظر إلى صدرها وكأنه لم يُخلَق بعدا كانت تتابعه بشدة، عيناها لا تتحرك بعيدًا عنه، لكنه لم يفعل، جاءته مكالمة هاتفية فسبقت خطواته إلى الأمام ثم باغتته باستداره سريعة منها لترى ما إن كان ينظر إلى جسدها أم لا، فوجدته يتحدث وهو يسير ناظرًا إلى أسفل، ارتاحت قليلًا فربما تكون بصحبة رجلٍ مهذب مما لايلتفتون إلى جسد المرأة ويعدونه أهم ما فيها.

في نهاية اللقاء طلب منها حسابها الشخصي على الفيسبوك، لم تعترض بل وجدت أنه ربما يكون طريقًا أقلَ وطأة من الطريق الذي اختارته؛ فحديث الهواتف والحديث عبر التقاء الأعين قد يفضحاها فيهما صوتها وملامح وجهها المرتبكة على الأقل في بداية الأمر، أما وسيلة الكتابة فتسهّل عليها الكذب دون أن يُكشَف أمرها.

افترقا على موعد بلقاء ولكن دون أن يحدداه سويًا، فقد فهمت عيناهما أن ذلك اللقاء سيكون ميعاده بمجرد دخول كل منهما إلى منزله.

***

عادت هاجر إلى منزلها سعيدة بنجاح خطتها فقد شعرت أن كريم يهتم بها، فقد حاول أن يعرف هل لديها أطفال أم لا، هل هي سعيدة مع زوجها أم لا، فهي بالذكاء الكافي لمعرفة ماكان يدور بخلده حينذاك، برغم ارتباكها فقد لاحظت تركيزه الشديد في إجاباتها بل وترقُّبه لحظة بلحظة وكأنه يشاهد فيلم رعب ويتابع البطل وهو يقترب من ضحيته الجديدة في ترقب، يتابع بقلبٍ يكاد ينخلع من مكانه.

فتحت باب المنزل وما إن دخلت حتى رأت أشقاء زوجها وبجانبهم تجلس أمها، رأتهم ينظرون إليها نظرة الظافر المنتصر وكأن خصمه ينزف دمًا من شدة ما ألمَّ به من هزيمة.

دخلت وهي تغلق الباب في عصبية زائدة مسرعة الخطوات قائلة بصوت عالٍ:

- خير ما الذي أتي بكم إلى هنا؟

وقف أحدهم بابتسامة خبيثة ونظرة تفحصتها جيدًا من شعرها إلى أخمص قدمها حتى زاد من ارتباكها قائلًا:

-أرى أن سوادكِ قد استبدل سريعًا، على حد علمي أن أخي لم يكمل أربعين يومًا، من يراكِ يوم دفنه بسوادك الكاحل لايراكِ اليوم بألوانك هذه!!

نظرت إليه باستهزاء قائلة:

-أولًا لا تقل أخي.. فما فعلته به أنت وإخوتك لا يمت للأخوَّة بصِلة.. ثانيًا الحزن في القلب وليس بالألوان..

ثالثًا أنا أكثر منكم حزنًا عليه، على الأقل لم أتحدث عن ميراث قبل أن يمر شهر على وفاته.

ثم عادتت تكرر سؤالها: لقد سألتكم ما الذي أتى بكم إلى هنا؟

وقف أخ آخر بابتسامة صفراء وبيده ورقة يحركها في الهواء قائلًا:

- جئنا من أجل هذا..

فطن ذكاؤها لما تحوي هذه الورقة فابتسمت بسخرية حرقت ابتسامته وجعلتها تتلاشى سريعًا ثم قالت :

- ما هذه؟ أهي حُكم من المحكمة من أجل تقسيم الإرث!!

نظروا جميعا إلى بعضهم ثم وقف آخر بصبرٍ قليل وغضب قائلًا:

-بما أنكِ بهذا الذكاء فلتعلمي أنك هنا ضيفة ليس أكثر وأنك...

قاطعته وهي تجلس واضعة ساقٍ على أخرى في ارتياح قائلة:

-أنا حبلة.

اختلط الصمت بالدهشة وأصاب الجميع الذهول التام بما فيهم هاجر نفسها فلم تشعر بفداحة ما تفوهت به وما أقدمت عليه سوى بعد أن تعدى حدودها وحدود والدتها وشريف طبيبها، فقبل تلك اللحظة وهي كانت تشعر أن أمها جزءٌ منها، وشريف سيسعد إذا تراجعت، فلا بأس بهما والأمر كله بيدها.. أما أن تقول لهؤلاء إنها حبلة فقد بدأ اللعب الحقيقي بالنار.

ماذا لو جذبوها عمدًا إلى معمل طبي لإجراء التحليل الذي طالما أجرته وأتى بنتيجة سلبية!

ماذا إذا كانوا أكثر تهذُّبًا وطالبوها بتقرير طبي يثبت ذلك الحمل!

نظرت أمها إليها نظرة لم ترَ مثلها من قبل، وكأن عينيها تتكلم بل وتصرخ بها لتقل كلمة واحدة.. مجنونة..

اخترق أحد الأشقاء الصمت قائلًا بصوت عالٍ وبغضب شديد:

-أنت كاذبة.

ثم قال آخر متقدمًا نحوها :

-مادليلك على هذا؟ وحتى إن كنت حبلة ربما يكون...

قاطعه أخوهما الأكبر الذي ظل صامتًا منذ البداية وقال له بحدة:

-لا تكمل.. ولا تخوض في أعراض أحد.

صاح الأخ الأصغر مدافعًا عما كان يريد قوله:

-أنا فقط كنت أريد أن أقول...

قاطعه أخوه الأكبر مرة أخرى بشكلٍ أكثر حدة قائلًا:

-انتهينا.

ثم نظر إلى هاجر قائلاً بهدوء:

-من فضلك أريد أن أرى التقرير الطبي الذي يثبت صحة كلامك.

ارتبكت هاجر وابتلعت ريقها بصعوبة ونظرت إلى أمها في توسُّل كي تنقذها فهي قد ورثت عقلها الراجح وفطنتها من والدتها ولكن عقلها الآن قد توقف فلا تدري بما تجيب، من يشاهد موقفًا لغيره ليس كمن صنعه بنفسه، استجابت الأم لتوسل ابنتها وصاحت بهم قائلة:

-أظن أنه برغم إبلاغي لكم أن ابني ليس بالبيت ونحن ليس لدينا رجل الآن سواه وأن هاجر ليست بالبيت إلا أنكم أصررتم على اقتحام المنزل وليس لكم كلام معنا الآن إلى أن يحضر أخوها الأكبر .. تفضلوا دون طرد إذا سمحتم.

قال أحدهم بصوت عالٍ وقد جنَّ جنونه؛ فالأرث سيذهب منه ويسير تحت قدميه متجهًا لزوجة أخيه بسبب لا يثق به:

-هذه حجج واهية، أنتما تهربان من الموقف، وليس لديكما إثبات وهذا حمل كاذب، لماذا تحملين منه الآن بعد أن أصبح ميتًا؟ ألم يكن معكِ سبع سنوات؟ أم بعد أن امتصيتِ خيره وهو على قيد الحياة تريدين أخذ ماتبقى بعد وفاته!! أنتِ...

وقفت في سرعة وغضب وهي تشير إلى باب المنزل قائلة:

-كما قالت أمي حديثكم مع أخي وإذا أردتم الاطلاع على أي أوراق فلتسألوه هو وإذا أردتم المجيء هنا مرة أخرى فلتستأذنوه أولًا.. تفضلوا.

أراد أحدهم أن يرد من شدة غضبه، ولكن أخاهم الأكبر قد أنهى الحوار فنظر إلى أخويه وقال وهو يجذبهما:

-السلام عليكم.

نظر الأخوان الأصغر إليها ووالدتها نظرة غيظ ثم امتثلا لأمر أخيهما ورحلوا جميعًا في صمت.

ما إن أغلقت الخادمة الباب خلفهم، حتى التفتت الأم إلى ابنتها قائلة:

- ظننتكِ في مرحلة من الانهيار العصبي وتتصرفين من شدة الصدمة فتركتك حتى تفيقي بمفردكِ وتعرفي حجم ماتفعليه، أما الآن فأنتِ قد أصابك الجنون!!

ظلت هاجر صامتة ثم قالت:

- إذا كانت المشكلة تكمن الآن في ورقة تثبت الحمل فلنأتِ بها من معمل طبي به أحد يمكن أن يُشترَى، هذا ليس صعبًا سأحاول فيه.

صاحت بها الأم قائلة:

- هذا ليس كل شيء.. إلا إذا كنتِ تنتوين شراء بطنٍ منفوخة بجنين أيضًا!!

- لا تستهزئين بي، فهذا حلٌّ مؤقت حتى أُوقِف إجراءات الميراث.

- والحل النهائي من وجهة نظرك كي تحافظي على تلك الأموال.. ماذا!! أن تحملي من زوجك الميت!! أليس كذلك؟

أجابت في تحدٍّ قائلة:

- نعم سأفعلها وسأحمل وسيبقى لي طفل من أحمد يحمي أموالي وأموال أبيه.

_ وكيف سيأتي الرضيع بعد تسعة أشهر من وفاة أبيه؟

_ سأرفع قضيه وأثبت بها نسبه لأبيه وسأربحها

- ألا تعلمين أن الحقن المهجري مثل الطريقة الطبيعية للحمل، تحتمل النجاح وتحتمل الفشل؟

قالت وفي عينيها خيبة أمل أن يحدث ذلك:

-نعم أعلم، ولكن ربنا أكبر من كل شيء وأثق أنه سينصفني.

علا صوت الأم حتى أن أتت الخادمه على صوتها وهي تقول:

-أين الله فيما تفعلين؟ أنتِ تتحدين إرادة الله..

قالت هاجر سريعًا وكأنها تنفي تهمة:

-لا .. لا أتحدى إرادة الله، فإن كتب لي الحمل فهو منه وإن لم يكتب فبإرادته أيضًا.

أخفضت الأم من صوتها وهي تقول بيأس:

-لافائدة منك.. تمامًا مثل عدم الفائدة التي ستأتي مما تفعلين..

وسأذكِّرك غدًا

***

دخلت غرفتها وحديث أمها يدور برأسها تمامًا مثلما تدور الأرض بها؛ فقد كان يومًا غريبًا في حياتها. بدأ بتفاؤل في الحياة واختتم بيأسٍ ووعيدٍ بغضب من الله. ربما لو طال حديثها مع أمها أكثر لاتهمتها بالكفر أيضًا.

لم تجد مايخرجها من تلك الأفكار التي تتصارع داخل رأسها سوى سريان المياه الفاترة على جسدها ثم الجلوس أمام الحاسب الآلي.

فتحت حسابها الشخصي على (الفيس بووك) وأخذت تمحو مواساة الأهل والأصدقاء لها بعد وفاة زوجها. وقامت بإضافة كريم إلى قائمة أصدقائها وجلست تنتظره.

***

عاد كريم إلى منزله وقد أرهق عقله بالتفكير بها فقد بدأت في استعمار قلبه وعقله معًا؛ فأنوثتها تصيب قلبه. وحياتها الزوجية الغامضة تصيب عقله. ذلك الاحتلال الذي تصنعه به يجعله غير قادرٍ على التوقف عن تحليل كل شيء تقوله أو تفعله.

ما كل هذا الغموض الذي تحيطه بعلاقتها بزوجها؟

لماذا يأتي حديثها عكس مايراه في عينيها ويشعر به من نبرات صوتها؟

ثم يعود ليسأل نفسه سؤالًا واحدًا. هل لكل ذلك فائدة. أم أنه سيترك قلبه في العراء وحده يعاني فراقًا جديدًا؟

مهلًا.. فمازال الوقت مبكرًا كي تقر عيناك بحبٍ يعطيك كما يأخذ منك!!!

انتشلته سمر من شروده، عندما طرقت باب غرفتهما ودخلت، فقد كان يفكر وهو يبدل ملابسه. فقالت بضيق:

-لم تلقِ التحيه عند دخولك إلى المنزل.

-آسف.. لم أنتبه.

كان الشك يملأها، فهي تعرف علاقات زوجها قبل الزواج، وتعرف أن بها عيوبًا لا يرضاها، ودائمًا ماترى أنها لاتعني له الكثير على الرغم أنه لها كل شيء، قبل أن يغرزها الشك في أشواكه أكثر قالت:

-أراك اليوم والأمس قد تبدل حالك وأصبحت أكثر شرودًا!! هل لي أن أعرف ماذا بك؟

أصابه الضجر من حديثها فهو يعلم جيدًا مقصدها، فقد كان ذلك ردها دائمًا عندما يشكو قلة اهتمامها بنفسها، رد يعني، هل هناك أخرى؟

تذكر أن شروده قد أخذه بعيدًا عن موعد التقائه بهاجر عبر (الفيسبوك) فقال لسمر في عجالة:

-ليس بي شيءٌ، أرجو أن تخرجي وتتركيني، لدي عمل سأنجزه.

ضاعف من شكها فقالت متعجبة:

- منذ متى وأنت تعمل في المنزل؟

أجابها بعدم اهتمام وهو يجلس على سريره ويفتح حاسوبه الآلي:

- منذ الآن.

همَّت أن تقول شيئًا فقاطعها بجِدّة أنهت النقاش بينهما:

- وليس لي نفس لكي أتناول العشاء.

نظرت إليه بغيظ وقد استطاع أن يوقف الكلمات في حلقها، فخرجت في صمت وأغلقت الباب خلفها.

كانت دائمة الشك فيه، لكنه كان دائمًا يخلص لها، كان لديه حُلمٌ بأن تصبح هي كما يريدها أن تكون، أو كما تريد هي، لكنها ليس لديها رغبة في أن تصبح أنثى، ليس من أجله ولا من أجلها.

(5)

كان شريف يستذكر دروسه بشكلٍ يومي بذات الترتيب للمواد الدراسية، كل مادة دراسية لها وقت محدد حتى وإن لم ينتهِ منها، وفي منتصف الوقت يحاول أن يتريض في غرفته بتمارين بسيطة تخلو من أي صوت يُذكَر حتى لا تلفت انتباه والده فيغضب عليه ويتهمه بإضاعة الوقت، فتخلى ذات يوم عن شراء كتاب جديد من أجل شراء بعض الأدوات الرياضية البسيطة.

كان يريد أن يخرج طاقته في شيءٍ مفيد، فكان يخرج بجسده إلى الرياضة وبعقله إلى الروايات، لكنه دائمًا كان يشعر أن بداخله المزيد والمزيد فقرر أن يكتب رواية بنفسه.

كان يكتب وهو مقتنع بأنها ستكون الأفضل على الإطلاق وأنه سيكون من الروائيين المشهورين، لم يكن يشعر بذلك من أجل أن يحمس نفسه بل لأنه يتحدث فيها عن حياته، كان يعتقد أنه ما إن كتب رواية واقعية فلابد أن تنجح وتحصد إعجاب الناس، لم يكن يعلم أن الخيال يمكنه أن يأتي بقصص أكثر واقعية مما نعيشه.

بدأت روايته بقصة حياته حتى اللحظة التي يكتب بها، ثم اتجه إلى الزاوية التي يريد أن يرى نفسه بها، فصوَّر نفسه فارس أحلام لفتيات طالما رآهن ولم تكن لديه ثقة بنفسه حتى يقترب من إحداهن.

صوَّر نفسه ذا عضلات مفتولة، متخلصًا من نظارته الطبية، ومن ثيابه قديمة الطراز، يمشي بخطوات متأنية وهن متراصن على يمينه ويساره يتمتع بنظراتهن الممتلئة بالإعجاب له.

***

ذات يوم قرر أن يخرج جزءًا من روايته لشخصٍ ما يبدي بها رأيه، لم يكن لديه أصدقاء ولكن هناك زملاء له صلة بهم، اختار واحدًا منهم بطريق الصدفة، وهو من جلس بجانبه أثناء أول محاضرة في ذات اليوم الذي قرر فيه أن يستمع لرأي أحد، وكان هذا هو أيمن، وهو شاب وسيم يغزو قلب الفتيات بلا استئذان فيمكث قدر مايريد ثم يرحل.

كانا يتحدثان عن المناهج الدراسية وقُرب موعد الامتحان وبعد انتهاء الحديث، ابتسم شريف في خجلٍ قائلًا لأيمن:

-كنت قد شرعت في كتابة رواية وانتهيت من الفصول الثلاثة الأوائل وأريد معرفة رأيك فيما كتبت، هذا إذا كان لديك رغبة؟

ابتسم أيمن قائلًا:

- أقرأها إذا كان بها قصص حب أما إذا كانت...

أجاب شريف على الفور وكأنه صائد سمك يضع طُعمًا ثمينًا لسمكته:

-لا لا هي بالفعل قصص حب،

ومن النوع الذي يروق لك، أحاول أن أخرج مالدي من طاقة في عمل روائي مفيد.

حكّ أيمن ذقنه وابتسم في مكر قائلًا:

-إذا كان على الطاقة، هناك أشياء أخرى تنفس بها عن نفسك، وتكون ممتعة أيضًا .

اقترح عليه صديقه أن يختار فتاة ويقترب منها، فإن كانت لاتصلح للزواج فيتمتع بصُحبتها وإن كانت تصلح فليعشّمها بذلك إلى أن يملّها فيبحث عن غيرها.

لا يهم السبب وراء معرفة الفتيات، الأهم من السبب الفتاة نفسها.

كان هذا مبدأه.

قوبل اقتراحه بالرفض التام لما تحتوي شخصية شريف على ضعف وقلة ثقة بنفسه، فأخبره أنه فقط يريد معرفة رأيه فيما كتبه قلمه على تلك الصفحات، وكأنه يريد أن يوقف محاولته من تلك الجهة، فهم أيمن ذلك، وعرف أن صديقه لن يتخطى بحر كلماته ولن يعبر حدود عالمه الخاص الذي يعيش به منفردًا فاقترح عليه أن يبحث عن أفلام تشبع رغباته وتنفس عن طاقاته المكبوتة، يرى فيها الفتيات كما يريد أن يراهن، دون التحدث إليهن أو حتى الاقتراب منهن، دون أن يشعرن بشخصيته المهتزة أو بفشله في مغازلتهن.

رأي التعجب في عينيّ شريف فقال بسخرية استفزته:

- لماذا هذا التعجب!! أنا الذي أتعجب منك!! كيف لشابٍ في مثل سنك لم يحاول تثقيف نفسه حتى يتعامل مع الجنس الآخر، ألا تعرف أن هناك الكثير من الفتيات يعرفن عنك أكثر مماتعرفه أنت عن نفسك؟

قابل تلك الكلمات بخجل وكأنها لكمات تمزق وجهه. لم يستطع فعل شيء سوى التستر وراء ستار الدين فصاح به:

- ألا تعلم عقاب ما تشجعني عليه؟أم أنك تعلم ومازال شيطانك يحفزك؟

لملم كتبه دون أن ينتظر المحاضرة التالية ودون أن يسمح له بالرد، ثم غادر قاعة المحاضرات وظل جالسًا في كافيتيريا الكلية تتطاير الأفكار من رأسه لتأتي أخرى ترسو وتتطاير من جديد دون إجابة واحدة منه.

بعد قرابة الساعة وجد أيمن يجلس بجواره ويعتذر له عما بدرَ منه ويطلب منه نسيان الأمر، ووقف يستعد للانصراف ولكن قبل أن ينصرف استوقفه قائلًا:

- أتستطيع أن تأتيني بفيلمٍ من تلك الأفلام؟

***

هبط الليل بسواده القاتم وساد البيت الهدوء، فقد خلدَ الأبوان إلى النوم مبكرًا، وجلس شريف في غرفته كعادته لا يخرج منها قبل صلاة

الفجر، اطمأنت ياسمين لذلك السكون وأغلقت باب غرفتها وبدأت في خلع ملابسها التي دائمًا ماتشعرها بأن شيئًا ما ينقصها. فدائمًا ماتختار لها والدتها ملابس بيت أشبه بملابس الرجال، ترجوها أن تمنحها فرصة الاختيار كي تنعم بملابس أنثوية بعض الشيء وإن كان ذلك في غرفتها عند النوم، وتتعهد لها بألا تخرج بها من غرفتها أثناء ارتدائها، لكن والدتها دائمًا تجيب نفس الإجابة:

-إن علم والدك لن يرحمنا، فأنتِ لك أخ، ولن يسمح والدك بذلك حتى إن كان عند النوم فقط.

في كل مرة عند الشراء تحاول مع والدتها لتلقى نفس الرد، فقررت أن تختلس قمصانًا من ملابس والدتها القديمة عندما كانت عروسًا، ترتديها قليلًا لتشعر بأنوثتها.

واليوم اختارت قميصًا باللون الأبيض، قصيرًا، خاليًا من الأكمام، يشف ما تحته بدقة، التفَّ الحرير حول جسدها الناعم في انسيابية ورِقّة، ظلت تتمعن في ثوبها الشفاف، فقد شعرت أنه أعطى لجسدها شيئًا جديدًا جميلًا لا تعرف ماهو ولم ترَه من قبل.

بدأت تتلوى أمام المرآة في دلعٍ ودلال على أنغام أغنية شعبية، تهبط إلى الأسفل فجأة ثم تعلو ببطءٍ، ترفع شعرها المنسدل على كتفيها بيديها إلى أعلى ثم تنظر لجمالها الصارخ بابتسامة رضا.

أرهقها الرقص وملّت سماع الأغاني، لكنها لم تملّ الشعور بأنوثتها ولم تشبع عيناها من النظر إلى قوامها الممشوق، فأغلقت المسجل وأغلقت معه عينيها مستلقية على سريرها .

***

الوقت يمر وشريف مازال يجلس أمام الحاسب الآلي ماسكًا بيده (سي دي) الذي أعطاه إياه أيمن، مترددًا، حائرًا، لايعرف ماسيقدم عليه خطأ أم صواب؟ جلس يفكر ويخاطب نفسه:

هل ستفيدني هذه الأفلام في شيء؟ وإن لم تفِدني فهل تضرني؟

هل يضر الإنسان أن يتعرف على المجهول؟

أم من الأفضل أن أرى المجهول بعيني للمرة الأولى بعد زواجي؟

ظلت الخيالات تأتي وتذهب بذهنه، يصورها له شيطانه بحوريات شقراوات يتمايلن أمامه في خفة، جعل خياله يشتاق إليهن حتى أوصله لما يريد.

مدَّ يده المرتعشة بال (سي دي) وجلس ينتظرهن بقلبٍ لم يعد ينبض بل يهتز بشدة جعلت جسده يهتز بشدة أيضًا؛ خوفًا من معرفة المجهول، أو ربما خوفًا من إدمان هذا العالم المدعو بالثقافيّ.

وضع يده على فمه كمن رأى شيئًا خطأ أو كمن خاف من شيءٍ ما وذلك قبل أن يرى أي شيء على تلك الشاشة الصغيرة، حاول أن يخرج

ال(سي دي) قبل أن يرى شيئًا ثم تذكر كلمات زميله له: "ألا تعرف أن هناك الكثير من الفتيات يعرفن عنك أكثر مماتعرفه أنت عن نفسك؟"

جرحت رجولته تلك الكلمات، شعر وكأنه من أنصاف الرجال، وكأن الرجل لا يعد رجلاً إلا بكثرة ضحاياه من النساء.

***

أفاقت ياسمين من غفوتها القليلة لتقفز فزعة عندما رأت نفسها مازالت بثوب أمها القديم، جرت إلى باب غرفتها تتأكد أنه مغلق ولم يرَها أحد وهي تتحدث إلى جسدها، فتحت الباب بحذرٍ وأطلّت برأسها خارج غرفتها يمينًا ويسارًا فتأكدت أنها بأمان ولم يطلع أحد على سرها الوحيد، فأغلقت الباب وتنفست الصعداء وأرادات أن تعود إلى سريرها لتنعم بخلوتها مرة أخرى، إلا أنها شعرت بجوعٍ شديدٍ يغزو معدتها الصغيرة.

وقفت أمام المرآة تخلع ثوبها ثم ما إن أعادت النظر إلى أنوثتها حتى أعطت ظهرها للمرآة كي تقوى على خلعه ولكنها سرعان ما استادرت إلى المرآة مرة أخرى تنغز جسدها بنظرات الإعجاب، تجز على أسنانها وتعض شفتها بغيظ عندما تتذكر حرمان أبويها لها من ملابس عادية ترتديها كل فتاة في منزلها بحُرّية دون أن يطلق عليها (قليلة الأدب).

قررت أن تتمرد للمرة الثانية، كما تمردت داخل غرفة نومها ستفعلها خارجها حتى وإن كانوا نيامًا لا يشعرون بها، يكفي أن تصول وتجول هنا وهناك وكأنها تُشهد المنزل على خطيئتها.

خرجت من غرفتها بحذرٍ وتردد، خطوه تشد الأخرى عنوة وبقوة، فما إن تتخيل ماذا سيفعل بها والداها إن رآها حتى تريد العودة، لكن شيئًا ما يدفعها دفعًا، يجعلها تسير على أطراف قدميها إلى أن وصلت إلى المطبخ وما إن رأت الطعام حتى استغاثت معدتها جوعًا فوقفت تلبي النداء.

***

أغلق شريف جهاز(الكمبيوتر) وهو يتصبب عرقًا، تخلص من ال(سي دي) بحرقة، دون أن يهتم بغضب صديقه الذي أوصاه أن يستعيره ويعيده كما هو..

لا يعلم لماذا فعل ذلك أهو من هول ما رأى!!

أم من خوفه أن يعرف أحد ما رأى؟

جلس على سريره منكمشًا خائفًا من شيء لا يعرفه، يغمض عينيه محاولًا محو مارآه لكن دون جدوى فيفتحهما مرة أخرى ثم يعاود إغلاقهما بشدة، لكنه أيضًا لا يرى سواهن، جلس يهدّئ من روعه قليلًا فليس أمامه سوى أن يهدأ.

فتح نافذة حجرته علّ هواء الصبح النقي ومنظر السماء الصافية وصوت العصافير يمحو من عينيه صورتهن في رداء العهر.. قرر إعداد شراب ساخن حتى يهدأ ثم محاولة التريض قليلًا ، فخرج من غرفته متجهًا إلى المطبخ.

(6)

جلست هاجر وقد بدت لها دقائق الانتظار القليلة وكأنها ساعات طويلة، تضع فيها سيناريوهات لما تخطط بينهما، ترى أن من الأفضل أن يتم التعامل بينهما بشكل رسمي في البداية ويجب أن تتقن دور الزوجة التي تصون غيبة زوجها، فلا تتحدث ليلًا إلا في أوقات مناسبة، وألا تدعه يتدخل في حياتها الزوجية، وألا تجاوبه دائمًا على أسئلة شخصية عنها، ولا تجلس معه في أماكن عامة وأن تكون لقاءاتهما في مكتبة في بداية الأمر. تحاول أن تقيّده.. تمنعه.. تحرمه.. كي يجن جنونه وتصبح له صندوقًا مغلقًا فيبحث عن مفتاحه بشغف، فكل غامض دائمًا مثير.

ظلت تفكر إلى أن قام بقبول طلب صداقتها لتبدأ حكايتهما.

بدأ حديثهما متحفظًا بعض الشيء، خاليًا من المداعبات ومليئًا بالمجاملات لا يتطرق إلا للعمل، ولايزال التكلف بينهما قائمًا، فتناديه (يا باشمهندس كريم) ويناديها (مدام هاجر).

بمرور الوقت وتعدد الأحاديث عبر (الفيسبوك) شعرت باهتمامه يحيطها فباتت تنتظره، ونَسيَتْ بعض القواعد التي وضعتها في البداية والتي كانت تنوي التنازل عنها لاحقًا، فأصبحت بعد بضعة أيام متاحة له وقتما يريد، لتمر الأحداث أسرع مما توقعت.

مرت الأيام على حديث لا ينقطع، يأتي من العدم إن أصابه السكون، ليبدأ من جديد.

حديث يصل ليله بنهاره..

تاهت فيه الألقاب..

وطُرِحَت فيه الأسئلة.

أسئلة كانت تربكها وتعتقد أنها تختبئ خلف ستار كلماتها المكتوبة.

لا تعلم أنه بات يقرأ مابين السطور التي تكتبها زيفًا، لا تعلم أنه علم بتعاستها التي تخفيها بابتسامات مرسومة مغشوشة حتى وإن كان لا يعلم سر تلك التعاسة، يأخذها بانسيابية من موضوع لآخر فتترك إجابة لسؤال قفز إلى ذهنه دون أن تدري، فأسئلته لم تكن عشوائية، كان يتم انتقاؤها بل وانتقاء الطريقة التي تُلقَى بها والوقت المناسب لذلك.

بدأت تتخذ أسئلته لديها مسلكًا مريحًا؛ فأحيانًا تنتظرها لتتحدث عن نفسها باستفاضة وكأنها تتحدث مع شخص تعرفه منذ زمن بل وكانت تبادله نفس السؤال، دون وعيٍ منها، أدركت حينها أنها تريد التعرُّف أكثر على شخصيته بل والتقرب إليه، كانت تلك الفكرة تزعجها فكيف تفكر فيه كرجل وماهو إلا أداة من أدواتها للوصول إلى هدفها المنشود، كانت تكذب على نفسها بأن ذلك ضروري لخطتها وبالتالي فهو متاح،

وبهذه الطريقة اعتقدت أنها خدرت عقلها، لكنه لم يخدر بل تركها ورحل فقد علم أن القلب الآن من يتحدث.. لكنها لم تعلم بَعد.

كان لحديثه جاذبية خاصة حتى إنه إن توقف قليلًا عن الكتابة، تشعر بأنه سكت دهرًا، حاولت أن تتجنب تلك الجاذبية، لكنها كانت واهمة.

حاولت أن تصب كامل تركيزها فيما تهدف إليه من تلك العلاقة، فظننت أنها فعلت.

أحبت حديثه الذي كان يحررها من وعد فوق قبر زوجها بألا تعرف غيره، يحررها من ذلك الخندق الذي اختارته لها ولجنينٍ تريد حمله في أحشائها عنوة.

وكان حال كريم كحالها فنسى ماعرفها من أجله فقد ساقه قلبه إليها بسرعة فاقت كل حدوده مع فتياته السابقات، أما هاجر فقد وافق نسيانه هواها فأصبحت تقلل من الحديث عن العمل وتتركه يفتح حديثًا لمجالات أخرى في الحياة.

كان عِنده يدفعه نحو النقاط التي حرمتها عليه، فيحاول بأكثر من طريقة اقتحام حياتها الزوجية، لكنها كانت تتمنَّع، كانت تشعر أحيانًا بالخيانة فتتعمد دائمًا إحراجه بتجاهُل سؤاله حتى يكف عن إلحاحه ويخمد بداخلها ذلك الشعور ، وقد فلحت في ذلك فكان حصنها يدك إصراره، فقرر أن يغزوها بطريقة غير مباشرة، يتحسس كل خطوة يخطوها تجاهها حتى لا يفقدها.

مرت أيام أخرى زادت من تمكُّنه بها، فانطفأت فرحتها بسيرِ خطتها كما خططت لها، وتوهجت بداخلها أحاسيس ظنت أنها قد دُفِنَت ، ولكن أبهذه السرعة تشعر ولو بالقليل تجاه شخصٍ آخر، كانت ترهق عقلها في البحث عن الأسباب دون جدوى، كان قربه منها أحيانًا يجعلها تفكر أن تتراجع لكنها كلما تذكرت حديثه معها ذات يوم تقرر السير فيما قررت:

ذات يوم أراد أن يخرج قليلًا من دائرة (الفيسبوك) ليستمع إلى صوتها الرقيق فترجَّاها أن تحدثه ولو قليلًا فقد كان يشعر أنه بحالة مزاجية سيئة وأرد أن ينسى الدنيا بها:

-أشعر من صوتك أن بك شيئًا.

-نعم، بعض المتاعب بالعمل.

-في الشركة أم في مكتبك؟

-لقد تركت الشركة منذ فترة.

-لماذا؟

-لا أطيق أن يكون لي مدير، يأمرني وينهاني وقد يكون أقل كفاءة مِنّي، قررت أن أعمل حُرًّا وهذا يزيد من الضغط الذي أتعرض له خاصة وأن عملي الخاص بالكاد يكفي احتياجاتنا، وأنا أريد أن أضمن بقاء المستوى المادي الذي تعودنا عليه.

كانت دائمًا تلك الكلمات لا تفارق أذنيها كلما اقتربت منه، فحتى إن أرادها فكيف في ظروفه تلك يستطيع الزواج بها وإن أمكنه فلن يوفر لها الرفاهية التي عاشت بها طوال عمرها، فهي أيضًا تريد أن تضمن بقاء المستوى المادي الذي تعوَّدت عليه. فقررت أن تتناسى أن لها قلبًا ينبض الآن!

***

كان ما إن يعود من عمله حتى يتحدث معها، إلى أن يغلبه النوم، ذات يوم سألته:

-أيمكنني أن أسألك سؤالًا شخصيًا؟

-نعم، تفضلي.

-منذ أن عرفتك وأنت تتحدث معي منذ دخولك المنزل وحتى ذهابك للنوم، ألا تحب أن تجلس قليلًا مع زوجتك؟

-أتريدين الصراحة.. لا..

-لماذا؟ألا تحبها؟

-لا تستطيعي أن تقولي لا أحبها، لكن لا أريد أن أجالسها

-كيف تحبها وكيف لاتريد الجلوس معها؟

-لم أقل أحبها.

-لا أفهمك.

كان يصر أنها لن تدخل دائرة علاقته بسمر إلا بعد أن تفك بيدها الحصار الذي صنعته حول علاقتها بزوجها فقرر الاقتحام فجأة بعد سؤالها وكأن سؤالها أعطاه جرعة منشطة بعد أن أصابه اليأس وكعادته الغير مباشرة وبسلاسة حديثه، أخذها إلى مايريد بعد أن أعطته فرصة رفض تركها:

- زوجتي ليست من كنت أحلم بها، فمن كنت أحبها ولا أريد سواها تركتني، تألمت وبكيت، تشرد قلبي ولم يعد، وجدت زوجتي أمامي، فكرت بها كمن يقلب في شيء يعتقد أنه مناسب له فيشتريه، وحقيقة فقد كنت أحبها لكنه حب لم يتملكني يومًا ولن يتملكني وأنا لا أعترف بذلك الحب الذي لا يهتز له كياني، ولذلك بسهولة فقدت هي ذلك الحب.

- كيف؟

- أفعالها لا تعجبني، ولا تهتم بنفسها كثيرًا، لا تهتم برأيي بها.

-قف بجانبها، قل لها ماذا تحب بها لتهتم به.

-قلت كثيرًا.. لكن لا فائدة.. وأنتِ؟

اضطربت قائلة:

-أنا ؟

-نعم أنتِ.. أشعر أن حياتك مع زوجك تشبه حياتي مع زوجتي.

ردت بسرعة من ينفي اتهامًا قائلة:

-لا.. أنا أحب زوجي وهو كذلك.

أصابته بإحباط مجددًا ليس لما قالته ولكن لرفضها فك القيود بينهما ولإدراكه أنها كاذبة.

نعم هي الآن تكذب، لقد أصبحت أقل لهفة لتذكُّر ذكرياتها مع زوجها، تغفو على صوت كريم وتصحو عليه أيضًا، غيَّرت من عادتها التي اكتسبتها منذ وفاة زوجها باحتسائها قهوتها أمام شرفتها وهي شاردة في ذكرياتهما سويًا، فأصبحت تحتسي قهوتها وهي تحدث كريم عبر الهاتف أو عبر (الفيسبوك).

تحت مسمى خطتها !!!

***

زادت مشاعره تجاه هاجر من بُعدِه عن سمر، أصبح يرى عيوبها بوضوح، عيوب كان يحاول غض البصر عنها حتى يستطيع أن يكمل حياته معها من أجل الطفلين، وجوده بجانبهما كان الشيء الوحيد

الذي يهوّن عليه مايحتاج إليه قلبه ومايحتاج إليه كرجل من أنثى يريدها حقيقة وليست كلمة فقط!!

ولكن تلك العيوب أصبحت لا تزعجه.

يرى عدم تقليمها لأظافرها فيعتاد عليها، يتذكر كم مرة اهتمت بنعومة جسدها فيستطيع حصدها، يرى عدم هندمة ملابسها عندما يضطر أن يصحبها إلى مكانٍ ما فلا يغضب، كان على يقين أن ما يشعر به ليس لمقارنته بينها وبين هاجر وإنما لما بدأ يتكوّن بداخله لهاجر، فأصبحت غيرها لا تعني له شيئًا حتى وإن كانت تفوقها في كل شيء.

فقد وجد نفسه التائهة بها، واختلفت معها أشياء كثيرة حتى كلماته.

كانت بداخلها تقول.. ما أجمل كلماتك وكأني لم أسمع كلمات حب من قبل!! معرفتي بك لم تكمل شهرًا بعد، وأشعر أن بداخلك المزيد والمزيد ولولا تهربي منك لقلت أنَّ قلبك لي..

تعددت لقاءتهما في مكتبه وكأن هناك مشروعًا حقيقيًا وليس ستارًا يختبئان خلفه يضعانه طي النسيان ويتذكراه عند اللقاء.

ذات يوم كان يريد لقاءها خارج المكتب، كان يريد أن يشعر معها بشيءٍ أكثر حميمية وكأنهما مراهقان يتواعدان دون أن يعلم أحد، حاول معها أكثر من مرة، كان يحاول دائمًا أن يتماشى مع كلماتها التي تزين

بها علاقتهما حتى تستطيع أن تكمل بها، فكان دائمًا يذكر علاقتهما بأنها ارتياح من كل طرف للآخر وكأنهما صديقان مقربان جدًا ليس أكثر.

هي تعلم أن مابداخلهما يفوق ذلك.. ولكن وصفه للعلاقة بهذا الشكل يريحها!!

وافقت وهي مشوشة، لماذا يحتل تلك الثقة بداخلها، تذكر أن زوجها حينما طلب منها نزهة صغيرة قبل خطبتهما رفضت بشدة، وكانت تصر أن هذا خطأ، لماذا أصبح الخطأ صحيحًا الآن!!!

لماذا معه كل المسميات اختلفت!!!

***

تألقت بفستان فيروزي طويل ذي أكمام قصيرة بدت فيه كالأميرة، تزينت كما أخبرها سابقًا، فقد كان يرى الألوان الترابية تزيدها جمالًا وأن هناك طريقة لتحديد عينها لم تكن تستخدمها تجعلها أكثر اتساعًا ورِقَّة، كان يرسل إليها صورًا لأي شيء يقترحه ويفشل في وصفه، تضع هي تلك الصور أمامها وتقف أمام المرآة وتبدأ في تطبيقها على وجهها.

انتبهت وهي تفتح باب غرفتها لكي تذهب للقائه، إن شعورها السابق لم يعد موجودًا فهي لم تتألم وهي ترتدي لونًا غير الأسود، لم تبذل مجهودًا لكي تخفي شحوب ملامحها فقد زادها كريم نضارة رغم السهر

يوميًا لمحادثته أوالتفكير به، أين زينتها القليلة التي كانت ترغم نفسها عليها، الآن ترسم عينيها وتخططها وتلون شفتيها بكل دقة وكما يحب، ترى الحيوية تزيد من رونق شعرها..

ماذا يعني كل هذا!!

بل أين خطتها من كل هذا!!

أغلقت باب غرفتها ولم تتلقَ أي إجابة على أي سؤال من تلك الأسئلة وكالعادة تتنهد أمها عند رؤيتها وهي تهم بالخروج من المنزل، تنظر لها دون أن تطيل النظر، تقف هاجر دقيقة تنتظر منها كلمة لكنها لا تتكلم.

***

ذهبت لتجده بانتظارها ببنطاله الجينز الأزرق و"تي شيرت" بلون فستانها الفيروزي، ابتسمت وهي قادمة نحوه، مدت يدها تصافحه وهي تقول وتشير بعينيها إلى "التي شيرت":

-كيف حالك؟

مدَّ يده مبتسمًا وقد فهم إشارتها قائلًا:

-لا أعتقد في الصدف.

جلست قائلة:

-حقًا!! إذًا ماذا تطلق على ارتدائنا نفس اللون؟

همس قائلًا:

- إنه إحساس كل منا بالآخر.

احمرت وجنتاها ونظرت إلى الأسفل خجلًا بينما كان هو يشعل سيجارة، لوهلة قطبت جبينها، تعجبت أن يروق لها دخان السجائر وهي التي كانت ترفضه بشدة ويجعلها تسعل قليلًا، ربما أصبح يروق لها بعد أن اختلط بأنفاسه، ربما لأنه يصنع حوله هالة رمادية اللون فتضيق عيناه قليلًا لتزداد جمالًا فيروق لها أكثر.

كانت تحب أن تستمع إليه وهو يحكي عن حياته بكل مافيها، عمله، سمر، طفليه، تشعر أن لها مساحة في حياة هذا الرجل برغم الزخم الذي يملؤها بل تعتقد أنها ربما تكون من أهم الأشياء الموجودة بها.

صمتت الشفاه قليلًا لتبدأ العيون حديثها، كانت لها نظرة تذيبه بها، تنظر إلى عينيه وكأنها تبحث عن شيءٍ مبهمٍ فتتنقل عيناها بينهما في تأنّي فتطول نظرتها إليه،حينها فقط ترى ملامحه ترتعش، وجهه بالكامل يرتعش من أجل نظرة عينها وكأنه ينتفض.

وجدت بداخلها أفعال تأبى الخضوع وتريد أن تلهو معه، لكنها تحجمها وكأنك أمام حصان يعاني من حبسه سنين طويلة والآن قد تم فك أسره فتحاول أن تلجمه وتسيطر عليه ولكنه لم يكن بالشيئ الهين

عليها، أرادت عيناها النظر إلى شفتيه، أرادت يدها أن تعبث بخصلات شعره، وأن تلمس خده بأطراف أصابعها، اعتادت معه على الشعور بأشياء لم تشعر بها من قبل وأصبحت لا تتعجب مما يدور بداخلها.

أهداها وردة حمراء وفي عينيه كلام يرد به عما يحدث بداخلها، هكذا هي شعرت، ربما تكون مخطئة وربما تكون على حق، لكن هذا أول شيء دائمًا تشعر به أنه يفهمها قبل أن تقول شيئًا ويدهشها أكثر عندما يشرح لها مابداخلها ويرتب لها أفكارها في كثيرٍ مما يحدث بينهما أو في مواقف تواجهها في الحياة.

أخذت منه الوردة مبتسمة، فباغتتها شوكة صغيرة نغزت إصبعها وبدلت ابتسامتها وخرجت منها كلمة "آه" مصاحبه لوجع إصبعها الذي بدأ يقطر دمًا، أمسكه كريم بسرعة، لم يتردد إن كانت تغضب أم لا وكأنه يوصل إليها رسالة "عندما يتعلق الأمر بأملكِ فلتذهب كل قواعدكِ إلى الجحيم".

وفي حنان أدخل إصبعها في فمه وعلقه بلسانه ومصَّ دمها، ثم أتى بقطعة من منديل وضعها حوله وضغط عليه جيدًا بيده.

كانت تنظر إليه متعجبة مستسلمة؛ فقد شعرت أنها ليس من حقها أن تلومه على ما فعل أو ربما لهفته عليها في شيء بسيط كهذا وفعله الذي شعرت فيه بالتلقائية وأن ليس به مقصدٌ آخر، جعلها تصمت.

مرت عليها تلك اللحظات القليلة كساعات يعلو فيها صدرها ويهبط دون توقف، ربما لأنها لأول مرة تتعرض لموقف كهذا، ربما لشعورها أنه اقترب من قلبها أكثر مما ينبغي، ربما لأن حكايتهما تأخذ طريقًا ليس مُخططًا له.

تعجبت كيف له لا يشمئز من أن يبتلع دمها، وتعجبت أكثر لكونها لم تشمئز أيضًا من لعقه إصبعها وكأنه شيء معتاد بينهما، وشردت قليلًا في زوجها المتوفي وبداخلها قناعة أنه لو كان مكانه مافعل ذلك من أجلها.

أفاقت من شرودها على صوته وهو يترك يدها برفق ويقول بصوت حنون:

-سلامتك..

-الله يسلمك..

-أعتذر أني...

قاطعته رافضة الاعتذار، فإجابة سؤالها الآن هو الأهم بالنسبة إليها:

-لا تعتذر، فأنا أقدِّر لك مافعلت.. لكن أريد أن أسألك.. ألم تشمئز وأنت...

قاطعها مندهشًا وكأن مافعله هو الطبيعي وما يجب أن تسأل عنه:

-بالطبع لا.

شعرت باضطراب قلبها وربما سمعت دقاته، أخفضت صوتها قائلة:

-كيف لا وأنت...

قاطعها بابتسامة قائلًا:

-أنا سعيد جدًا الآن.

تعجبت قائلة:

-سعيد جدًا!!!لماذا؟؟

-سأجيبك عندما تجيبين أولًا على سؤالي.

-أي سؤال؟

-هل شعرتِ أنتِ باشمئزاز منّي؟

أشاحت بوجهها بعيدًا خجلًا وقالت:

-لا..

اتسعت ابتسامته وارتعشت ملامحه من جديد وهو يقول :

-وأنا لن أسألك لماذا وسأجيب على سؤالك، نعم سعيد جدًا لأن بداخلي الآن جزءًا منك.

ارتعشت ملامحها هي الأخرى وطالت نظرتها إليه، ولأول مرة تشعر بنغز ضميرها لها فوجدت لسان حالها يقول،

ليتك تعلم أني لا أستحق شخصًا مثلك!!!

***

استقلت سيارتها وهي محملة بمشاعر مختلطة بين الحزن والفرح، بين أحاسيس صادقة لشخص تعلم جيدًا أن قلبها سيفتك به حبًا وبين خداعها له، تود لو ارتطمت تلك المشاعر بحجرٍ وأصبحت مثله، فلا تشعر به ولا تلمس روحه طيفها، لو تعلم أنها ستصل إلى ماتعانيه، مابدأته!!

لأول مرة تفكر في وضع نهاية لتلك العلاقة، نعم فلتكون النهاية قريبة، ولكن ماذا بعد؟

توقفت عن التفكير للحظات وكادت أن تصدم السيارة التي أمامها عندما تكرر صدى السؤال في أذنيها: وماذا بَعد؟؟ أأخسر مشاعر لم أعِشها من قبل وأخسر أيضًا نقودي وطفلي؟

لا لا لن أفعل وربما أستمر مع كريم بعد الحصول على الأموال فهي أيضًا عائق أمامه، ربما عند إزالة ذلك العائق يسامحني على كذبي عليه فإن أفشيت سري الآن ربما يثور لكرامته فأخسره وأخسر كل شيء معه.. تنهدت بزفير يكاد يحرق ماحولها.. ثم قالت مخاطبة نفسها: "أتمنى ذلك!!"

كم شعرت براحة لم تشعر بها في حياتها من قبل، فقد توصلت لحلٍّ ذهبي لقلبها، فلتترك له العنان لكي يهيم في سماء حبيبه، ويأخذها معه حيث لم تعرف حبيبًا مثله من قبل.

***

عادت إلى منزلها لتجد هاني ينتظرها بوجهٍ عابسٍ وبعينيه أسئلة ينتظر إجاباتها بفارغ الصبر، دخلت ترحب به فقابلها بفتورٍ ولم يبادلها التحية ثم على الفور ألقى عليها أول سؤال:

-هل أنتِ حبلة؟

برغم تخمينها لماذا أتى فالبتأكيد ذهب إليه إخوة زوجها لكي يطالبوا بما يثبت صحة كلامها إلا أنها ارتبكت ثم قالت :

-أنا...

قاطعها بحدة قائلًا:

- نعم أم لا؟

لم تجد مفرًا فقالت :

-نعم.

ابتسم ابتسامة سخرية ثم نهض قائلًا:

-حسنًا تعالي معي نجري تحليلًا طبيًا كي أطمئن بنفسي.

نهضت قائلة:

-لا، لن آتي معك وأنت لماذا تتدخل بحياتي؟

أمسك بمرفقها بشدة قائلًا:

-أولًا أنتِ لست حبلة.. ثانيًا أنا لم أتدخَّل، أنتِ التي أدخلتِني لعبتك، كيف ستلعبين لعبتك القذرة هذه وأنت بهذا الغباء، ألم يطرأ على ذهنك أني أعرف الحقيقة من أمك، ألم تدخلي المنزل وتشاهدينا سويًّا؟

ترك مرفقها دافعًا بها إلى الخلف، اصطدمت بكرسي ثم جلست عليه وقالت:

-حسنًا، أنا لست حبلة وبما أنك جلست مع أمي وحكت لك كل شيء إذن أنا أفعل كل ذلك من أجل الحصول على أموال زوجي الذي دفعت ثمنها معه في الغربة والذي تغرَّب من أجلها قبل الزواج وتمنى في كل دقيقة طفلًا حتى لا تصل إلى يد إخوته ولن أتركها لهم مهما كلفني الأمر، أما إذا كنت تريد ألا أفعل فلتفعل أنت!!

عقد حاجبيه قائلًا:

-أفعل!! أفعل ماذا!! أحمل بدلًا منك مثلًا؟

قالت بسخرية:

بالطبع لا فهذا فعل قذر كما ذكرت وأنت بعيد كل البُعد عن القذارة إذا ما اعتبرنا استيلاءك على ميراثي ليس فعلًا قذرًا.

-هذا حقي، أنا من أنقذت العائلة من قدرٍ محتوم ينتهي بفضيحة الإفلاس.

-لكنك أنقذتنا أيضًا بميراثنا حتى وإن كان قليلًا.

-هذا حقي أنا بمفردي ولن أفرط به.

-حتى وإن كان ثمن ذلك أن أتراجع عن تلك اللعبة القذرة!!

نظر إليها بعين منكسرة ثم صمت، فعقدت ذراعيها أمام صدرها ونظرت إلى عينيه بقوة قائلة:

-إذًا اخرس وساعدني كي أنفذ ما أريد.

جلس قائلًا :

-ماالمطلوب مني؟

نهضت إليه ثم انحنت قليلًا وأسندت يديها على ذراعي الكرسي لتجبره أن ينظر إليها وقالت:

-أعطي إخوته مايريدون، تقريرًا طبيًا يثبت صحة كلامي وتختار لي محاميًا حتى نوقف إجراءات إعلام الوراثة وسيكمل معي الطريق للنهاية وبالطبع لن يحصل مني على أتعابه.

نهض وهو يقول باستسلام:

-شيء آخر؟

-نعم هناك شيء آخر.

-ماهو؟

- أن تكون مستعدًا للمساعدة في أي وقت وفي أي شيء.

لم يرد عليها، نظر إليها والى والدته ثم تركهما وغادر في صمت.

اتجهت هاجر لوالدتها تقول:

-هل سيظل الصمت بيننا؟

لم تجبها وأدارت لها ظهرها متجهة إلى غرفتها وتركتها وهي تقول:

- ألا تريدين معرفة...

صاحت بها وهي تسير دون أن تتوقف:

-لا.. لا أريد.

(7)

ظلت ياسمين واقفة في المطبخ تأكل في نهمٍ من كل طبق قطعة، وكأنه آخر يوم لشهيتها فتريد إشباعها قدر المستطاع، كانت لا تزال في ثوب والدتها المختلس، تتلألأ به كعروسٍ في ليلة زفافها، لم تنتبه لصوت الأقدام الآتي من خلفها والذي ما إن اقترب منها حتى توقف تمامًا.

كانت قدميّ شريف؛ أتى إلى المطبخ كي يعد كوبًا من الشاي الأخضر حتى ترتخي أعصابه، توقف عندما رأى حورية من حوريات الفيلم قد تجسدت أمامه، اتسعت عيناه وانفرج فمه وسال عرقه وكأنه يغتسل، لم يستطع التعرف على هذه الحورية، لم يخطر بباله قَط أنها ربما تكون أخته، فتلك الهيئة التي يراها عليها دائمًا بملابسها الفضفاضة وشعرها الذي يكاد يغطي داخل البيت وخارجه، لا توحي له بأن تلك هي ياسمين وكأنه نسى أن هناك أنثى بالمنزل.

ظل ينظر طويلًا إلى جسدها الأبيض المشدود، وإلى شعرها المنسدل حتى آخر ظهرها، لم يقوَ على شيء إلا الحملقة بها، لم يقوَ على الاقتراب خطوة أو حتى على التنفس بصوتٍ عالٍ وكأنه يحبس أنفاسه حتى لا تشعر به فترحل، ظل واجمًا ناظرًا إلى كل ماتقع عليه عيناه.

انتهت من وجبتها الدسمه وأرادت أن تعيد الأطباق مره أخرى إلى الثلاجة، التفتت لتجده خلفها، كان وقع رؤيته عليها كوقع حدوث الزلزال!!

انزلقت الأطباق من يدها فإنكسرت على الأرض لتحدث ضجيجًا ليس بالهيّن في سكون بالكاد تشقه أصوات العصافير صباحًا. لم تستطع أن تتفوه بكلمة وشعرت أنها كالعارية تمامًا وأن حتى تلك القطعة الحريرية الشفافة لا تسترها. اندفعت نحو غرفتها بسرعة البرق بينما هو يقف كصنمٍ سمَّرته دهشته.

***

دخلت إلى غرفتها مهرولة تشعر بالاختناق وبعدم الاتزان. جلست على سريرها بجسدٍ يرتجف غير مصدقة ما حدث. كيف يراها أخوها على هذا النحو. كيف ستتعامل معه بعد ماحدث بل وكيف ستنظر إلى عينيه بعد الآن!!

نهضت وقد ازدادت رعشة جسدها عندما تذكرت أول نظرة لمحتها في عينيه عندما التفتت ووجدته. تلك النظرة تخيفها؛ فهي نظرة رجل يشتهي امرأة!! منذ لحظات كانت تتساءل كيف ستتعامل معه وكيف ستنظر إلى عينيه وكأنها الطامة الكبرى. الآن هي تتمنى أن يقف الأمر عند ذلك. بدأت لأول مرة تفكر في حياة أخيها. كيف عاش وكيف تربى!!

لا إجابه سوى أنه مثلها. فقد طالهما القهر والحرمان معًا. فإذا كانت قد حُرِمَت من الإحساس بأنوثتها ووجدت سبيلًا لذلك بخلوتها. فربما ينفس هو عن رجولته داخل المنزل الذي يأبى والده أن يغادره سوى

للجامعة فقط!! ابتلعت ريقها بالكاد وصمت حديث نفسها!! فليس لذلك معنى سوى أنها ستكون منفسه الوحيد!

***

عاد شريف إلى غرفته وحاله ليس أفضل منها، يفكر بأشياء ونقيضها، يريد فعل شيء وعكسه، كلما تذكرها يرغب بها وكلما تذكر أنها أخته ينفض رأسه يمينًا ويسارًا محاولًا رفض ما تشتهيه نفسه.

يجلس على مكتبه محاولًا البحث وراء مارآها عليه، لماذا ترتدي ذلك الثوب ؟من أين أتت به؟ بالطبع لا تعرف والدته شيئًا عن ثوبٍ كهذا، يفضح أكثر مما يستر، لم يستطع أن يكمل تحليله لتصرفها هذا، فجمال قوامها في ثوبها الشفاف يقفز أمام عينيه، الثوان القليلة التي منحتها له بغفلتها عن وجوده أصبحت هي كل مافي مخيلته الآن، لا يستطيع أن يحيد عنها.

وضع يديه على رأسه ووبخ نفسه ولام عليها، خاطب نفسه متسائلًا كيف أستسيغ لحمًا هو منّي؟! كيف أفكر بلمسه أو حتى النظر إليه مرة أخرى؟! أختي التي يجب أن تحتمي بي، أنا من أفكر بها هكذا؟!

أين الوازع الديني بداخلي؟! ليس معنى أني رأيت فيلمًا من تلك الأفلام أن أتحوّل إلى ذئبٍ يفترس أقرب الناس إليه؟!

نهض من مكتبه ليستلقي على سريره، حاول ألا يفكر بما حدث ويستهين به ربما يصدق نفسه، بعد لحظات قليلة وهو ينظر إلى سقف غرفته ظهرت له وقفزت في خياله من جديد وكأنه لم يكن يوبّخ نفسه منذ لحظات.

حاول التملص منها قليلًا، أبى خياله أن يتركها فاستسلم لها، لم يفعل ذلك عندما انتهى من رؤية فتيات محترفات على شاشته الصغيرة، فلماذا يتذكرها على هذا النحو؟

ربما لأن الواقع أحلى كثيرًا..

سؤال مازال يلح عليه.. وماذا بعد؟!

أجمل فتاة رأتها عيناه بالغرفة المجاورة، في أبهى صورها، وكأنها الليلة تهيأت له، يفصل بينه وبينها خطوات قليلة، لا أحد يشعر بهما، فليخطو تلك الخطوات ويعبّر لها، ربما تفكر مثله بل وربما تجلس تنتظره.. ليس مابينهما يعد علاقه أخوية بل ربما لا توجد بينهما علاقة من الأساس.

كان والدهما يعتبر الحديث بينهما من المحرمات، بدأ بعد أن تمت ياسمين ثماني سنوات في نهرهما إذا رأى الحديث طال بينهما، فبدآ يقللان من حديثهما، اعتقد والدهما بذلك بأنه يفعل الصواب، كان يعتقد الحل في زرع الجفاء لمجرد اختلاف الجنس بينهما، لو كان يعلم

أن هذا الجفاء سيشعرهما بغربتهما عن بعضهما ويسمح بدخول الشيطان بينهما مافعل!!

ليس الحل في تربية الأبناء هو التباعد والفتور بينهم حتى تحميهم من شيء مجهول ربما يحدث وربما لا!! شعور الأبناء بالأخوة هو ما يحميهم، لو شعر شريف منذ صغره بأن ياسمين أخته فعلًا، لو رباه والده على الحديث معها واحتوائها والدفاع عنها وعلَّمه معنى الشرف والعِرض، ما كان فكَّر بها هكذا!!

كاد أن ينعدم الحديث بينهما وحتى الانخراط في الحياة اليومية كاد أن ينعدم أيضًا، عندما بلغت ياسمين سن الثانية عشر، سن المراهقة والأنوثة، بدأت تتخذ جانبًا عن المنزل بأكمله، تشعر أن بها تغييرًا تخجل منه، خجلت من جسدها الذي بدا مختلفًا عن ذي قبل فاتخذت من العزلة والانطواء والصمت أصدقاء لها، لم يكن جهلًا منها بل جهلًا من والدتها التي لم تحتوِها في هذا السن الحرج ولم تعرِّفها أن ما تمر به شيء طبيعي يحدث لكل الفتيات فلا داعي لأنْ تنطوي أو أن تشعر بالحرج، لم تكن تشعر والدتها بأهمية منح الاطمئنان والحنان لابنتها في هذا التوقيت الهام ربما لا لوم عليها أيضًا فعندما مرت ذات يوم بما تمر به ابنتها لم تجلس معها والدتها لتعلمها شيئًا وكأنها ثقافة موروثة؛ أن تظل الأنثى جاهلة بجسدها إلى أن تتزوج؟!

كانت لاتعرف سوى إلزام ابنتها بأداء فروض الصلاة وارتداء ملابس فضفاضة بجانب حجابها الذي ألزمها به والدها في سن الثمانية أعوام حتى قبل أن يأذن الله لها به؟!

نهض شريف من سريره بعد أن استولت على عقله أفكاره الخبيثة التي جعلته يندفع نحو باب غرفته بقوة ويفتحه ليذهب إليها ليس عابئًا بنتائج بما ينوي عليه.

***

كانت ياسمين قد هيأت نفسها لكل الاحتمالات التي قد تصيبها ووضعت أقواها أمام عينيها فقررت أن تبدِّل ثوب والدتها سريعًا وتعود إلى ملابسها الواسعة وأن تهرب من واقعها بالنوم وتحاول نسيان ماحدث، ولكن ما إن انتهت حتى فوجئت به يطرق الباب ويدخل مندفعًا دون انتظار إذن الدخول كما هو المعتاد في المرات القليلة التي قرع فيها بابها، ينظر لها نظرات مبهمة حادة أرجعتها إلى الخلف خطوات قليلة حتى التصقت بالحائط، فما منه سوى أن أغلق الباب وجذبها بكلتا يديه إليه وطال تفحصه لوجهها الأبيض الجميل وطالت نظرة الخوف والرجاء في عينيها.

***

استيقظت الأم على صراخ زوجها وبكاء ابنتها، كاد قلبها المنشق قريبًا إثر عملية جراحية أن يتوقف من شدة الخوف، تتبعت صوت الصراخ

مستندة على حيطان المنزل، حتى وصلت إلى غرفة ابنتها وقفت على باب الغرفة لتجد ياسمين في حضن شريف جالسين على السرير، ملابسها ممزقة وشعرها الطويل الكستنائي مبعثر حول وجهها وشريف بجانبها بملابسه الممزقة أيضًا، نظرت إلى والدهما، وجدت الدم على ملابسه فقد اعتدى على شريف بعد أن رآه ينهش لحمه، حاول إبعاده عنها، ليرد عليه شريف بدفعة قوية من قدميه حتى ارتطمت رأسه بالحائط وسال من مؤخرتها الدم وبدأ يتساقط على ملابسه، فشعر الأب أنه لم يعد مثلما كان ولن تقدر قواه على التصدي لقوة شاب في أوائل العشرينات فبدأ في الصراخ خوفًا من بطش هذا الشاب المستحلّ لما حرَّم الله.

ظل الذهول في عينيّ الأم وساد الصمت للحظات بين الجميع، كل منهم له نظرة مختلفة عن الآخر تعكس ما بداخله من شعور ورغبة عدا ياسمين، فهي الوحيدة التي لم تعبر نظراتها عن شيء، بينما شريف كان يحتضنها كأنها أصبحت ملكًا له ولن يرضى بسواها.

كسرت الأم حاجز الصمت بصرخة عالية:

- ماذا يحدث؟

نظرت إليها ياسمين والدموع تسيل من عينيها دون أن تجيب ودفنت رأسها بين كفيها وأجهشت في البكاء، نظرت الأم إلى السرير وجدت

قطرات من الدماء بجانب ابنتها مباشرة، زاذ خوفها وخفق قلبها المتعب بشدة فوضعت يدها عليه وتمنت ألا يكون ما ظنته صحيحًا.

قالت وهي تنظر إلى الدماء بصوت متهدج وعينها تمتلئ بالدموع :

- أجيبوني!!

نظرالأب إلى عينها حيث ذهبت وأجابها في خجلٍ متحاشيًا النظر إلى عينها:

- نعم ماظننته صحيحًا، نسى هذا الحقير تعاليم دينه وانساق وراء شهواته!!

صرخت بكل مافيها من قوة وشقت يدها صدرها في ضربات متلاحقة، ولطمت خديها، أيقظت ماتبقى لدى شريف من إنسانيته فنهض إليها ليكفّها عما تفعل خوفًا على قلبها المريض، أمسك بيدها فدفعته بكلتا يديها بعيدًا عنها وانهالت عليه بالسباب والصراخ حتى أنهما لم يشعرا بطرق الجيران للباب ودخولهم المنزل بعد أن فتح لهم الأب الباب، رأتها بعض النسوة من الجيران فأجلسوها على كرسي بجانب الغرفة حيث كانت لاتزال تقف على الباب.

كانت دفعتها قد زجت بشريف داخل الغرفة فأغلق الأب الباب حتى لا يرى أحدًا ابنته بملابسها الممزقة، لكن الأم دفعت الباب وخلفها الجيران وأصرت على اصطحاب ابنها إلى الشرطة وتحرير محضر وإثبات

الواقعة به، أرادت أن تأخذ حق ابنتها التي ضاع مستقبلها ودُمِّرت سمعتها، لو كان شخصًا غير أخيها كان يمكن أن يتزوجها لكن كيف يحدث ذلك الآن بعد أن استباح الأخ عِرض أخته؟!

نظر شريف إليها في رجاء وخجل:

- أرجوكِ يا أمي لا تفعلي، أنا...

قاطعته بغضب:

- لا تقل أمي، ليتك متَّ قبل فعلتك هذه.

أراد أن يقول شيئًا لكنها قاطعته قائلة:

- أنت من الآن ميت بالنسبة إلي.

ذهب شريف إلى غرفته يشق طريقه بين جيرانه الذين يراقبون مايحدث وذهب خلفه والده.

أغلقت الأم باب الغرفة واحتضنت ابنتها وبكت الاثنتين بقلب يحترق، ثم انهالت عليها بالأسئلة التي تطايرت دفعة واحدة:

- ما الذي أيقظك مبكرًا، أم أنك لم تنامي منذ أمس؟

أجابت ياسمين بصوت بالكاد سمعته:

- لم أنم منذ أمس.

- لماذا فعل بك هكذا؟ أهذه أول مرة أم تعدى عليك سابقًا؟

قالت قاصدة الاقتضاب في إجاباتها:

- أول مرة.

ثم حاولت النهوض هاربة من مزيد من الأسئلة فساعدتها والدتها وأرادت أن تبدِّل لها ثيابها لكي تذهب تحرر له محضرًا وتنتزع حقها منه لكن ياسمين أخذتها الرأفة به فقالت:

- لا يا أمي لن أذهب، ألا يكفيك مصيبتك فيَّ، أتريدين فقدانه هو الآخر؟

صاحت أمها بغضب شديد وصاحبت الرعشة صوتها وهي تقول:

- لا فليست مصيبتي فيك وحدك، مصيبتي فيمن استحلَّ شرفك أيضًا ومصيبتي فيه أكبر، لم يعد ابني ولابد أن يأخذ جزاءه.

ربتت ياسمين على كتف والدتها وأشفقت على صحتها من ذلك اليوم وتلك الأحداث الصعبة فبدَّلت ملابسها وأحكمت حجابها وخرجت وسط نظرات الدهشة المختلطة بالشفقة على تلك الفتاة وحياتها التي سُلِبَت منها غدرًا من أقرب شخص لها.. ولكنها لم تكن تفكر مثلهم، لم يكن ماتحمله من آلام نفسية وجسدية لتقضي على ماتبقى بداخلها من تسامح ومحبة لأخيها الوحيد حتى وإن كان لم يشعر تجاهها بتلك المشاعر الأخوية حتى وإن كان كلبًا مسعورًا لقطعة لحم هي منه.

كانت تتخللهم وهي تفهم نظراتهم جيدًا لكنهم لم يفهموا ما بداخل عينيها، توهموا أنه خجل وتعجُّب وانكسار مما حدث لها، لم يعرفوا أن هناك أشياء أخرى تحملها عيناها لكنهم لا يرونها، هم فقط يريدون أن يشاهدوا الحدث ويستمتعوا به ليتحاكوا به فيما بينهم أو حتى لمن لم يرَه، أما هي فكانت تفكر كيف تنقذ شريف من السجن وكيف ترضي والدتها فصحّتها لن تتحمل أكثر مما تحملته؟!

(8)

دخلت هاجر إلى غرفتها وقد أرهقتها الانفعالات الزائدة هذا اليوم والأحاسيس المختلفة المضطربة مابين حُبٍّ بدأ يطرق باب قلبها بقوة وبين مايقذفه القدر من توابع لتمسُّكها بقرار حملها، كانت منهكة متعبة لاتشعر برأسها من كثرة الإرهاق، كعادتها تركت المياه تنحدر من رأسها إلى قدميها ولكن هذه المرة لم تحدث مفعولها المعتاد بإزالة ماتعلق برأسها من أحداث وأفكار، فقط أزالت ما تعلق بجسدها من أتربة ذلك اليوم الحار، خرجت من الحمَّام كما دخلت بل أثار تواجدها تحت المطر أسئلة جديدة.

ماذا يعني صمت هاني؟ فهو بالقوة الكافية لردها عما تفعل؟

أكُل هذا من أجل ألا يعطيها حقها في ميراثها من والدها؟ أم ينوي على شيء آخر فلم يبدِ معارضة حتى لا تهتم بالأمر وتفكر به فتصل إلى ما ينوي؟

لماذا من يمتلك الكثير من المال يطمع في أكثر منه ويغضب حينما ينقص منه شيءٌ حتي لو كان النقص هذا حقًا يعود إلى أصحابه؟! على عكس من لا يملك الكثير وربما لا يملك شيئًا يُذكَر وتراه يتقاسمه مع غيره المحتاج دون أن يكون له الحق فيه؟!

جلست أمام المرآة تمشط شعرها وهي ترفض أي شيء يمكن أن يأتي من هاني ليوقف ما تخطط له، أي شيء، خاصة منه هو.

أخذت قطعة من القطن ووضعتها في كريم مخصص لإزالة الزينة التي تلون بها وجهها وأخذت تنظر إليه. كانت في بداية الأمر عندما تعود إلى المنزل بعد لقاء كريم تنزع زينتها ليظهر وجهها الباهت فتنظر إليه في صمت وتترك المرآة غير مكترثة لذلك. أما الآن فهي تنزع زينتها لترى وجهًا مشرقًا نضرًا فتنظر إليه وتبتسم له كأنها تبتسم لشخص آخر!!

***

عاد كريم إلى منزله ليلقي التحية سريعًا إلى سمر وكأنه فرض عليه لتسوقه قدماه دون أن يشعر لغرفة ولديه. الشيء الوحيد الذي يحيا من أجله في هذا المكان المعتم من نور العشق الذي يبغاه. كان في بداية زواجه يرسم طقوسًا بينه وبين سمر كما كان يحلم دائمًا أن تكون حياته الزوجية ويصر على حدوثها فكان يتناول يدها يقبّلها في حنانٍ، كان يريدها ملكة لقلبه لكنها دائمًا كانت تتهكم على تقبيله ليدها وتشعره بأن تلك القبلة لا تعني لها شيئًا. كانت تسخر من أفعاله الرومانسية التي تبعث في نفسها الملل، ولكنه كان يصر عليها رغم عدم شعوره الكامل بها. ليجبر قلبه على حبها على شاكلته أحيانًا وليوهم نفسه أنه يعيش مايتمناه أحيانًا أخرى.

أتت سمر إلى غرفة ولديها وسألته في ضيق وشك:

- ألم تلاحظ أنك لم تطبع قُبلة على يدي منذ شهر تقريبًا!!

أنزل ولديه اللذين كان يحملهما معًا بالكاد وأهداهما قبلتين ثم خرج من الغرفة وهو يقول:

- ألم تكن تزعجك قُبلتي على يدك!! لماذا تسألين عنها الآن؟

دخل غرفته وهي خلفه وقد أثار برود حديثه غضبها أكثر فعلا صوتها وهي تقول:

- مرارًا لمَّحت لذلك، لماذا تستجيب الآن لطلبي!

قال وهو يخلع رداءه:

- لا يهم الوقت، المهم أنني قد أستجبت لطلبك.

- لا، الوقت يهم، لأنك لم تعد كما كنت.

لم يرد عليها واتجه إلى الحمَّام وهي لم تكمل حديثها وآثرت الصمت، فلم يكن هناك معنى آخر لصمته سوى أن حديثها صحيح، هناك ملكة أخرى تسعد بقُبلَة يده فمنحها إياها، وسرى بها إحساس بالندم على شعورها السابق بتلك القُبلة التي أدركت الآن معناها وأهميتها بل أدركت أيضًا أنها كانت تحبها وتنتظرها دون أن تشعر.

بعد قليل خرج كريم من الحمَّام ليجد سمر أمامه في أبهى صورها وإن كانت أبهاها لا تروق له، كانت تجلس أمام المرآة تتعطر له وكان ينظر إليها في حيرة، أليست هي من كانت منذ قليل تشك به وتشكو من قلة اهتمامه المفاجئة، ماذا دهاها؟! أهي تحاول أن تخدع نفسها بأن شيء

لا يحدث وأنها زرعت الأوهام بيدها في عقلها؟! أم أن شكوكها قد رسخت في عقلها فتحاول استرجاع زوجها؟!

ظل صامدًا في مكانه يطرح التساؤلات بينه وبين نفسه دون أن يجد إجابة لأيّ منها.

أما هي فقد حاولت أن تتناسى السبب وراء فعلها ذلك، فقد فكرت فقط في النتيجة والتي ربما تأتي كما تريد بأن يعود إلى حضنها؟!

كانت ترتدي قميصًا أبيض طويلًا بأكمام شفافة وصدرٍ عارٍ تحتفظ به منذ ليلة زفافهما وكأنها تريد أن تذكِّره بأنها مازالت زوجته وربما تريد أن تذكره بليلة من الليالي القليلة التي شعرت فيها بحبه لها، أضفت زينتها على ملامحها حلاوة وإن كانت حلاوة لاذعة لما فيها من ألوان غير مناسبة للون بشرتها من جهة ولكثرتها من جهه أخرى.

نظر إليها وابتسامة باردة تغطي وجهه؛ فلا زالت على غبائها، تتهيأ له كما تريد وليس كما يريد هو، جلس وهو يتأفف بداخله، فدائمًا ماتعكِّر عليه صفو حياته الجديدة مع هاجر بتلك الليالي، واليوم بعد ماشعره من هاجر تجاهه، أدرك أنه لا يريد تلك الليالي معها، كان ينظر إليها بملء عينيه ولكنه يفكر كيف يتملص منها فقد حدث شيء غريب في نفسه.

ماحدث أن لا شيء حدث.. وكأنه لم يرَ شيئًا!!

***

استند بظهره على كرسي مكتبه ينتظرها في ضيقٍ؛ فعلى غير عادتها تتأخر، تُرى هل تتعمد ذلك!! لكنه أمر مستبعد فهي لا تميل إلى التصنع بصفة عامة ولا إلى تلك الأفعال بصفة خاصة. ترى ما الذي يؤخرها؟! هل قلّت لهفتها إلى لقائه؟ أم حدث شيء بينها وبين زوجها؟

زوجها!!

لماذا طالت سفرته وهو لايعمل بالخارج كما ذكرت له، فمن كلامها القليل عنه والذي أصبح يتقلص في كل مرة عن ذي قبل، عرف ذلك.

انتبه إلى طرق بابه وإلى سكرتيرته وهي تستأذن لهاجر في الدخول، وعلى الفور أشار إليها بالموافقة وهبَّ واقفًا في انتظار دخولها، دخلت مبتسمة تمد يد المصافحة وانتبهت إلى علامات القلق على وجهه وهو يصافحها وقبل أن تنطق بكلمة قال بنبرة تحمل قلقًا عليها وغضبًا منها في آنٍ واحد:

- تأخرتِ اليوم!

شعرت بارتياح لقلقه عليها ورأت وجهه أكثر وسامة حينما تحتل مكانة ما بداخله فاتسعت ابتسامتها وهي تجلس وقالت:

- لا شيء سوى أنني تأخرت في النوم قليلًا فاستيقظت متأخرًا.

جلس وهو يزفر بقوة وبدا الارتياح على وجهه قائلًا:

- لقد أخفتِني كثيرًا.

مالت على مكتبه على غير عادتها وفي دلالٍ غير مبتذل لم يرَ مثله من قبل.

قالت:

- حقًا!! خفت عليّ؟

وجد نفسه يميل إليها بقلب يرتجف، ليس لقربه من أنثى بل يرتجف مما يحمله من مشاعر حقيقية جيّاشة لاتترك منه ذَرَّة إلا وتملأها عاطفة قوية، قال لها بصوتٍ حنون:

- لم أخَف في حياتي على أحد بقدر خوفي عليكِ.

اعتدلت وقد أشعلتها الغيرة دون سابق إنذار قائلة:

- حتى زوجتك؟

استند مرة أخرى إلى ظهر كرسيه وبدا على وجهه الانزعاج قائلًا:

- لماذا دائمًا تتعمدين ذِكرها في لحظاتنا المميزة؟

اعتدلت بدورها قائلة بخبث:

- هل تزعجك سيرتها لهذا الحد؟

فطنَ إلى غيرتها فنهض وجلس أمامها وأجاب عليها الإجابة التي تطفئ نارها فقال:

- نعم، سيرتها تزعجني لأني لا أريد وأنا معكِ أن أتحدث عن أي امرأة أخرى، فلا وجود لامرأة في وجودك.

ابتسمت وأرادت المزيد من كلامه المعسول فعقدت ذراعيها أمام صدرها قائلة بمكر النساء:

- أتضع زوجتك وأمّ طفليك مع سائر النساء بمواجهتي؟

نهض للمرة الثانية متجهًا إليها وجثا على ركبتيه في الهواء ثم تناول يدها وقبَّلها بطريقة لم يألفها من قبل، كانت أنفاسه ساخنة وكانت شفتاه ملتهبتين بلمسة يدها، وكانت هي كعادتها معه تترك له العلاقة يقودها كما يشاء، فتأمنه على نفسها دائمًا، قال بعدما طبع قُبلته النارية على يدها التي لاتزال في حضن يده:

- أنتِ بكل نساء الأرض .. أنا أحبك.

ارتبكت رغم يقينها المسبق بحبه، فكرت في سحب يدها، أبت إرادتها ذلك، بل تركتها بين أحضان يده علّه يكرر تقبيلها مرة أخرى، التقطها من أفكارها ورعشة قلبها مكملًا حديثه:

- أعلم أنك متزوجة وأنني كذلك، وأعرف كم هو وضعٌ معقد بالنسبة إليك ولكني اثق أن لي مساحة في قلبك ولو قليلة، واثق أنك لست على مايرام مع زوجك.

نهض ومازال يمسك يدها ليحثها على النهوض إلى أن وقفت بين يديه وقد انتابتها أحاسيس مختلفة تحاول أن تخيفها، سعدت كثيرًا بكلمة أحبك وكأنها أول مرة تسمعها في حياتها لكن معها تذكرت كذبها المتتالي عليه، فقد أتى كلامه الشهي ليذكِّرها به، فتذكرت أنها أرملة الآن وليست كما يظن، كما ذكَّرتها مشاعره الصادقة بماعرفته من أجله، انتشلها مرة أخرى من أفكارها وهو يقول:

- أشعر أن بداخلك شيئًا لي ولكني لست متأكدًا أنه حب وربما حب، لكن مقارنة بما أحمله لكِ من مشاعر يبدو ضئيلًا.

صمتت ولم تجب فقد غيَّر مسار خطتها ومسار حياتها لم تعد تعرف ما الذي عليها فعله، إن صارحته بكل شيء ربما خسرته وظن أنها لا تحبه وكان دميتها إلى أن تصل إلى غرضها فتفقده وتفقد معه حُلمها بالمال وطفلًا يؤنس وحدتها بعد هجره لها، وإن لم تصارحه تظل بين يدي ضميرها الذي أصبح جلَّادها الذي يتمتع بمشاهدتها تحت سوط العذاب دون شفقة أو رحمة، قررت أن تمسك العصاه من المنتصف فلا تبادله كلمة أحبك وتعبِّر عنها بأفعالها.

استطرد حديثه وهو يعبث بخصلات شعرها لأول مرة قائلًا:

- لو تعلمين كيف يكون حالي في اليوم السابق للقائك لعلمتِ كم أنا طفل معك فلا تتركي طفلك!!

كانت أصابعه تتخلل شعرها وجسدها في آنٍ واحد فكما تتحرك خصلاتها مع حركة أصابعه، يهتز جسدها من الداخل بقوة لَم يشهدها من قبل ، لم تستطع أن تجيبه برغم وجود ردود لكل كلمة يقولها، فبعد معرفتها به بفترة قليلة أصبح موضع ثقتها، كان القدر دائمًا يأتي بمواقف أمام عينيها تثبت كلامًا سابقًا له دون ترتيب، سواء عن سمر أو طفليه أو عمله، كما تشعر أنه لايريد معها علاقة آثمة فلو أنه يريد ذلك لاختلفت أفعاله كثيرًا، بل لكانت اختلفت نظرة عينيه لها.

أراد منها إجابة لكنه لم يرد أن يضغط عليها فقط أراد أن تثق به وبحبه فقال لها:

- هل تعلمين أن زوجتي تلح عليَّ كي أدبر مالًا لأشياء ضرورية للطفلين.

قالت بأسف:

- وهل أنا أشغل وقتك عنهما؟ ذلك شيء لا يسعدني.

قال وهو يلمس خدها بأطراف أصابعه في حنان:

- لا ليس الأمر كذلك، فقد شرحت لكي سابقًا أن الحالة الماديه ليست على مايرام نظرًا لأضطرارنا للمحافظه على مظاهر معينة بعد تركي للعمل بالشركة التي كنت أتقاضى منها ضعف ما ينتجه عملي الخاص

بل وأصبحت أحمد الله أن زوجتي ليست من عُشَّاق الموضة أو الكوافير فلو كانت كذلك لاختلف الأمر كثيرًا.

- ثم؟

- ثم أن قبولي لمشروع فيلتك سيحل مشكلتي لكني لم أسعَ به مطلقًا، لم أطلب منكِ سوى عقد قطعة الأرض فقط، هل تعلمين لماذا؟

- لماذا؟

- حتى لا تنتهي الحجة التي بيننا والتي تسمح لي بأن أراكِ، هل عرفتِ الآن مدى حبي لكِ؟

انتبها لدخول سكرتيرته فجأة وقد رأتهما على ذلك الحال، ارتبكوا جميعًا وقبل أن تبادر بالأسف، ابتعد كريم قليلًا عن هاجر وصاح :

- ألم تتعلمي أن تطرقي الباب أولًا!

ارتبكت قائلة:

- أعتذر بشدة.

ثم أرادت أن تنسيه فعلتها قبل أن يعاقبها فقالت مسرعة قبل أن يكمل:

- ولكن زوجة حضرتك تنتظر بالخارج .

نظر إلى هاجر ثم إليها وأمرها أن تتركها تنتظر وتبلغها أن لديه عملًا مهمًا، وقبل أن يتحدث إلى هاجر وجدها تجلس وتحاول أن تبدو هادئه رغم يقينه ببركانها الداخلي، همَّ أن يقول شيئًا لكنها سبقته وقالت وهي تضع ساقًا على أخرى بلهجة تملأها الغيرة، يحفظها عن ظهر قلب:

- أؤذن لها بالدخول.

مال عليها وقال بنبرة رجاء ومزجها بكلمة لأول مرة يقولها ربما يكون لها التأثير المرجو:

- حبيبتي، لا داعي لتلك المواجهة فهي لا تعرفك ولن تشعر بضيق، أما أنتِ فأكيد ستشعرين بغيرة لأنك تعلمين أنها زوجتي وأظن أنه سيكون بيننا شجار بسبب ذلك.

لم تجب وكانت عيناها قد امتلأت غيرة وقوة لم يرَهما قبل ذلك عندما كان يحدثها عن سمر أو عن أي علاقة أخرى في حياته، لذلك وجد أن الوقت يضيع هباءً ولن تأتي محاولاته بثمارها بل من الممكن أن ترسّخ شكًّا لدى سمر إذا طال انتظارها، فاتجه إلى كرسي مكتبه وجلس عليه في شيءٍ من الجدّية وأبلغ السكرتيرة بالسماح لسمر بالدخول.

دخلت وهي تبتسم للسكرتيرة وتشكرها على حسن ضيافتها ثم مالبثت أن رأت هاجر وقد زالت ابتسامتها لثوانٍ معدودة لتعود أكثر اتساعا في تصنع منها ناظرة إلى كريم وهي تتجه إليه فنهض بدوره وعلى غير عادتها أرادت أن تقترب وتقبِّله إلا أنه فهم ذلك بسرعة مما جعله يبتعد إلى

الوراء قليلًا فرسم ابتسامة على وجه هاجر لم تحاول إخفاءها وترك عبوسًا على وجه سمر فبدا أحمر تمامًا، شعر مما أرادت فعله؛ أنه لا يوجد سبب هام لمجيئها خاصة أنها لم تأتِ منذ افتتاح مكتبه الخاص بالإضافة إلى أنها كانت غير مرحبة بفكرة العمل الخاص، لذلك قال وهو يصافحها:

- خيرًا !! ما الذي أتى بك الآن؟!

ظهرت علامات الغضب فزادت من احمرار وجهها، مما جعله يدرك جيدًا عواقب طريقته معها والشجار الذي سيلتظره، حيث أنها ستعد طريقته غير لائقة خاصة أمام عملائه، فقرر أن يمرر اليوم بسلام فقال وهو يشير إليها موجهًا الحديث لهاجر:

- سمر زوجتي.

ثم أشار لهاجر قائلًا:

- مدام هاجر.

نظرت هاجر في ابتسامة مازالت تحمل سخرية ودون أن تقف قالت:

- أهلًا..

لم ترد سمر وقد انتقل إليها بركان هاجر بعد أن أطفأه كريم برفضه تقبيلها، نظرت إليه قائلة:

- كنت بالقرب منك أحضر بعض المشتروات وخطر ببالي أن نتناول الغذاء سويًا.

نظر إلى يديها الفارغتين وقال بسخرية:

- أين مشترواتكِ تلك؟!

شعرت سمر بالإهانة للمرة الثانية، لماذا يحدثها بهذه الطريقة، كم مرة كان يشتكي منها عندما يتشاجران وتظهر ذلك أمام أحد، فهو يحب الخصوصية خاصة في علاقته بها، لماذا يعتمد الآن تلك الطريقة أمام هذه المرأة وكأنه يريد أن يرضيها، أغضبها حديثه وابتسامة السخرية التي رأتها على وجه هاجر للمرة الثانية في دقائق قليلة، فقالت في غضبٍ لم تستطع كتمانه:

- أتتناول الغذاء معي أم لا؟

هنا خافت هاجر أن يقبل رغم علمها بأنها زوجته وتشاركه الطعام يوميًا سواء كان داخل المنزل أو خارجه، لكن الوضع الآن أصبح مَن الأقدر على جذبه إليها، من ستظفر به أو من ستكيد الأخرى، تذكرت أن قبل مجيء سمر كان ينتظر منها ردًّا على مشاعره تجاهها فاستغلت ذلك قائلة وهي تنهض:

- حسنًا، أراك مشغول االآن، سآتي يومًا آخر ولو أنني كنت أريد أن أريك فيلا صديقتي في الإسكندرية حتى تبني مثلها تمامًا فأنا سأسافر الآن إلى هناك.

وقف كريم وهو يتفرس وجهها فلم تصل إليه الرسالة كاملة، هل تقصد فقط إنقاذه من سمر؟ أم أنها ترد على كلامه وتريد قضاء يوم معه بين البحر والرمال فتثبت له حبها وثقتها به، لكنه علم في كلتا الحالتين أن الغيرة قد تملكتها وأن ذلك يعني حبًا تكنّه في قلبها له. فقال لها مضطربًا وهو يدعو الله أن تفهمه جيدًا:

- ضروري أن يكون ذلك اليوم!!

نشط ذكاؤها الذي شعر باضطرابه خشية أن تفسد ما يرمي إليه فتصنعت الأسف قائلة:

- للأسف ليس لدي وقت سوى الآن.

سكن قلبه في صدره بعد أن كاد يقفز منه خوفًا ألا تفهم مقصده وتصنَّع الأسف هو الآخر ونظر لسمر قائلًا:

- أعتذر منكِ ولكن..

قاطعته وقد فهمت ما دار بينهما وكانت نظرتها لهما تؤكد ذلك لكن الحفاظ على كرامتها كان أهم لديها من يوم يقضيه زوجها بصحبة أخرى، غادرت مكتبه وهي تواسي نفسها وتحاول أن تجعل الأمر هينًا،

فمهما عرف غيرها فهي أم طفليه ولن تستطيع أي امرأة تغيير تلك الحقيقة.

نظر إلي هاجر مبتسمًا سعيدًا بالتفاهم الذي حدث بينهما أكثر من أي شيء آخر، كم كان يتمنى أن من تشاركه حياته تفهمه من نظرة عينيه ومن نبرة صوته، كانا أحيانًا يفهمان بعضهما البعض من التلميح لشيء دون الخوض فيه، لكن موقف اليوم سعد به أكثر.

ابتسمت وهي تقول:

- أعتقد أن زوجتك شعرت بشيء ما.

- أعتقد أنني بحاجة إلى توضيح، ماذا قصدتِ بكلامك!

- قصدت ما قلته، لكن ليس تمامًا.

- كيف؟

- أريد أن أسافر إلى الإسكندرية، أحتاج إلى السفر وإلى الترويح عن نفسي.

صمتت وهو يتجه إليها ويمسك يدها ثم نظرت إلى عينيه لأول مرة وفي عينيها عاطفة قوية ثم قالت:

- وأحتاج إلى صحبتك.

- وأنا أحتاج إليكِ في حياتي.

نظر إليها وفي عينيه وصوته رجاء وقال لها:

- إن كنتِ تشعرين بالكلمة التي أنتظرها منكِ، أرجوك لا تحرميني منها.

صمتت ولم تجب، فربت على ذراعها في رفق وابتسم قائلًا:

- لا عليك.

***

لم تشعر بخوفٍ وهي بجواره وهو يتجه بها إلى الخلاء في طريقهما إلى الإسكندرية بل على العكس تمامًا كانت فرحة كالطفلة، تنظر من شباك السيارة إلى السيارات التي تمر سريعًا بجوارها وعلى الرمال التي تحيط بها، كانت مطمئنة معه وبه، كان قد خيَّرها أن يسافرا بالقطار أو بالأتوبيس أو بسيارته وترك لها حرية الاختيار دون الإيحاء لها بشيء، وقد اختارت أن يسافرا بسيارته فهي حتى الآن لم تستطع أن تخالطه أمام الناس فقد اعتادت أن تخالط شخصًا آخر لسنوات طويلة، لكنه لم يفكر في الأمر كذلك بل اعتبره منحة جديدة من ثقتها به ففرح بها.

وصلا إلى الإسكندرية وذهبا لتناول الغذاء أولًا ، فاجأته بردِّها عندما سألها عما تحب تناوله:

- سآكل مثلك.

رغم سعادته بردها لكنه قال:

- ربما ما أحبه لا يعجبك.

كانت تنظر إلى الشمس التي في طريقها إلى الغروب وهي تعانق موجات البحر من خلال زجاج المطعم فنظرت إليه مبتسمة وقالت بثقة:

- بل سيعجبني.

بعد قليل جاء النادل وبيده ورقة وقلم ليسجِّل ما اختاراه من قائمة الطعام، سمعته وهو يملي عليه أصناف الطعام، حساء خالٍ من الصدف والقشور، سمك مطبوخ، أرز وسلطة.

ابتسمت بعد ذهاب النادل قائلة:

- أتعرف أنني كنت خائفة قليلًا أن يخيب ظني خاصة وأن معدتي تتلوى جوعًا.

- هل كل ماطلبته أعجبك؟

- نعم .

- كنت أخشى ألا يعجبك خاصة وأني لا أحب ما يحبه أغلب الناس من سمك مقلي أو مشوي ولا يستهويني الجمبري.

- وأنا مثلك.

ابتسم قائلًا:

- وأنا كلما اكتشف شيئًا جديدًا مشتركًا بيننا كلما شعرت بالتفاؤل لما بيننا.

ابتسمت ابتسامة بسيطة، شعر كأنها مجاملة منها وأنها تخفي وراءها خوفًا كبيرًا، كان كل ما يدور في ذهنه أنها تفكر أن حكايتهما لن تنتهي نهاية تتمناها بل تراها نسيجًا من الخيال وسيفيقان ذات يوم ويصطدمان بالواقع، ولكن ليس هذا ماكانت تفكر به، كانت كلماته دائمًا تذكِّرها بخداعها له فتتلاشى فرحتها بمشاعره التي يبوح بها.

انتهيا من تناول وجبتهما وقد أقتحم الليل رحلتهما دون أن يشعرا به فقررا أن يجلسا على الرمال أمام البحر باقي الوقت حتى يحين موعد عودتهما، قالت ويدها ترسم على الرمال:

- قبل أن تدخل زوجتك شعرت أنك لا تريدها أن تشك بك وإن كانت مبرراتك لعدم وجودي معكما مختلفة لكن هذا ماشعرت به، وبرغم ذلك فما فعلته معها أثق أنه أثار الشكوك لديها أكثر من مجرد وجودي، لماذا حدثتها كذلك؟

- أتصدقينني؟! أنا لا أعلم فقط وجدت نفسي أقول ماقُلتَه.

- ولماذا رفضت تقبيلها؟

- لأنها ليست عادتها بل هي أرادت ذلك عندما رأتك فغارت منك.

- كان يجب أن تقدّر غيرتها على زوجها.

- لكنها لم تقدِر أشياء كثيره كانت مِلكها وحدها.

- تعاقبها؟

- لا بل خفت على مشاعرك.

- ومن قال إنني كنت سأغضب.

- أنا أعرفك جيدًا، ولو كنت قبلت بتلك القُبلة ماكنا هنا الآن.

صمتت للحظات وهي تتذكر كم مرة كان يشرح لها مابداخلها والذي كانت تغفل عن تحليله، كم مرة توقع ردة فعلها في مواقف بينهما ومواقف مع غيره وأصاب توقعه. نفضت يدها من الرمال ورفعت ركبتها في مواجة صدرها وشبكة يدها على ساقيها وهي تقول بصوت حزين:

- لقد مرَّ الوقت سريعًا.

- لا تنسي أننا قررنا فجأة القيام بالرحلة فوصلنا آخر النهار.

- نعم، فعلًا، لكن بإمكاننا تكرارها مرة أخرى.

لم يشعر بما فعل إلا عندما لامس رأسها كتفه وأحاطها بذراعه فقد جذبها برفق دون أن يشعر وتجاوبت معه دون وعي منها، ظلَّ الحديث بينهما صامت لكنه لم ينقطع، كل منهما كان يشكو للآخر حياته المليئة

بالحزن والتي ما انفرجت إلا بلقائهما، وكان كلٌّ منهما ينتبه للحظات إلى الحضن الذي يسكنه فبالرغم من أنها كانت بين كتفه وذراعه إلا أنه كان يشعر أنه ينعم بحضنها الدافئ، وكانت هي تتلذذ برائحة عطره ولمسة يده على ذراعها وشعرها.

***

كانت في طريق العودة تحاول الاسترخاء لكن إتصالات والدتها التي لم تنقطع منذ الساعة التاسعة مساءً قد أزعجتها للغاية، ما أزعجها أكثر كلامها عن المرأة الأرملة التي يجب أن تصون سيرتها من قول الناس: بألا تتأخر خارج منزلها وألا تفعل كذا وكذا وكذا.

متى سيتغير المجتمع!! كل عائلة بها المطلقة والأرملة فلماذا لا يرحم الناس بعضهم البعض؟! هل عندما تجلس المرأة في بيتها تكون بذلك حافظة لعِرضها وشرفها في زمن التكنولوجيا هذا ؟! هل عندما تكون متزوجة تكون بالضرورة لها رجل يحميها مع أن هناك رجالًا يُصنَّفون بالخطأ أنهم رجال؟!

كانت تلك الأفكار تتزاحم في عقلها عندما قرر كريم أن يقفا للاستراحة قليلًا، دخلا إلى المقهى وطلبا شاي، تناول كريم الشاي مع سيجارته كالمعتاد وكان يرى مزاجها قد تعكر منذ حديثها مع والدتها فلم يرد إزعاجها وتركها إلى أن تبدأ هي بالحديث لكنها كانت تشرب الشاي وهي تتصفح الإنترنت من خلال هاتفها النقال ففضَّل أن يظل صامتًا إلى أن رأى امتعاضًا على وجهها فجأة فسألها:

- ماذا بك؟ هل رأيت شيئًا أزعجك؟

- نعم، حادثة بشعة، جد يغتصب حفيدته.

- لابد أن تكوني قد اعتدتِ تلك الحوادث فقد زادت وانتشرت خاصة في الآونة الأخيرة.

- حتى وإن كانت كذلك فهي تظل حوادث بشعة لدرجة أنني أكاد لا أصدقها وأشعر أن تلك الجرائد تؤلف هذه الحوادث من وحي خيالها لتزيد من مبيعاتها.

- لا هذه الحوادث موجودة بالفعل وأنا صادفت منها في حياتي.

- حقًا ؟! وكنت تعرف أي طرف منها، الجاني أم المجني عليها.

- الاثنان، فهما كانا جيراني، والجاني الآن طبيب نساء ماهر، أترين كم هي الحياة قاسية، تدفع الضحية الثمن وتتوارى عن عيون الناس بينما الجاني ينعم بنجاح في حياته، لكنه على كل حال دفع الثمن أيضًا.

اهتز كيانها بشكل ملحوظ وارتعشت يدها التي كانت تمتد لكوب الشاي فتراجعت حتى لا ينسكب عليها وشبكت يديها ببعضها حتى تبدو متماسكة وسندت ظهرها إلى الكرسي حتى يحدّ من هزة جسدها، ها هو السر الذي تبحث عنه قد أتى دون عناء يُذكَر، كانت قد فكرت في أكثر من سيناريو حتى تعرف هذا السر، فكرت أن تذهب مع كريم يومًا إلى النادي بعد الجلسة الأسبوعية بينه وبين أصدقائه ومنهم شريف

وتختلق أي شيء لتتحدث عنه، فكرت في سيناريو آخر أن تسأله إذا كان يعرف طبيب نساء ماهرًا ثم تخترع حجة للحديث عنه بعد ذلك، ولكن القدر قد صنع سيناريو آخر ولم يكلفها عناء كذبة جديدة، نسيت كريم الذي أحبته وسافرت معه وائتمنته على نفسها وأصبح بالنسبة إليها كنزًا مليئًا بالمعلومات التي تفيدها في خطتها بل هي أصل خطتها، تحولت من حبيبة هائمة بلمسة يده ونظرة عينيه وكلامه الناعم إلى قطة شرسة تستعد لأخذ ماتريد بكل ماتمتلك، وأكثر ما تمتلكه منذ أن فكرت فيه كوسيلة هو الغدر.

تعجب كريم لما بدا عليها فسألها:

- أنتِ بخير؟

حاولت أن تعيد صوتها إلى أحباله فقالت :

- نعم بخير، فقط انزعجت عندما تأكدت أن تلك الحوادث حقيقية؛ فكما قلت لك كنت أظنها كلام جرائد، هل أزعجك إذا طلبت منك أن تروي لي حكايتهما؟!

(9)

لم يمانع في قصِّ الحكاية عليها فقد كان كل مايشغله أن يخرجها من حالة السكون التي سببتها لها والدتها، كان يظن أنها أيضًا تريد سماع القصة من أجل أن تفكر في شيء آخر سوى كلام والدتها. لم يعطِ للهفتها حقها في التفكير بها ولم يبال بكيانها المهتز أمامه، كان حبها المتوغل في قلبه ورغبته في إزالة حزنها هو أول همه وآخره. بدأ يقص عليها:

- شريف جاري منذ الطفولة، كنا نلهو معًا دائمًا إلى أن التحق بالمرحلة الإعدادية، كان والده يريده طبيبًا؛ لذلك كان يضيق عليه كثيرًا عندما كان يتعلق الأمر باللهو واللعب، فجأة شعرت أن شريف لا يكبرني ببضعة سنوات بل بسنوات كثيرة بسبب تركيزه في تحصيل العلم حتى لا يغضب والده، ابتعدنا عن بعضنا البعض تدريجيًا، وعند التحاقه بكلية الطب ظننا أن والده سيفكّ الحصار لكن ظل الوضع على ماهو عليه، ثم التحقت أنا بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية وقد زاد ذلك من البعد أكثر لكننا كنا قد كبرنا وكنا نحاول أن نلتقي من حينٍ لآخر ولولا وجود كليتي بالإسكندرية لتعددت اللقاءات وتوطدت العلاقة أكثر.

شريف له أخت وحيدة تدعى ياسمين، كانت من أجمل فتيات الحيّ، لا بل هي أجملهن على الإطلاق، أتذكر شعرها قبل الحجاب كان كستنائي

اللون فائق النعومة طويلًا كذيل الحصان كان يهتز مع كل حركة لها فتغار منها الفتيات، كان وجهها...

قاطعته بحده قائلة:

- هل سأنتظر كثيرًا لانتهاء وصلة الغزل تلك؟

ابتسم في مكرٍ قائلًا:

- أنا فقط أسرد لك...

أشاحت بوجهها ولم تجب فاستطرد :

- آسف، أتسمحين أن أكمل دون غزل أم فقدتِ الرغبة في سماع بقية الحكاية؟

نظرت إليه في ضيق قائلة:

- تفضل..

- بسبب أن دراستي كانت في مدينة أخرى بالإضافة إلى أنها دراسة صعبة وليست نظرية؛ فكنت أتواجد أغلب شهور العام بعيدًا عن أهلي وذات يوم عدت فروت لي أمي ماحدث قالت لي إنها أستيقظت باكرًا ذات يوم على صوت صراخ، لم تستطع تمييز مكانه، فتحت الباب فوجدت باب منزل الحاج حسين الذي يقع أمام باب منزلنا مفتوحًا والجيران بالداخل، كانت والدة شريف أقرب الجارات إليها وأحسنهن

خلقًا ففزعت وجرت تستطلع الأمر وتبعها والدي، وجدتها تلطم خديها وتضرب صدرها بشدة، كان قلبها مريضًا وكل من حولها خاف على حياتها فبدأ الجميع يسأل ماذا حدث وتطوعوا لحل المشكلة من أجل المرأة الخلوقة المريضة، لمحت أمي ياسمين وهي تجلس على سريرها بملابس ممزقة وبجوارها شريف وحاله مثلها وأبوهما يجلس والدماء تقطر على ملابسه ويبدو عليه الإرهاق والهلع، كان الجميع في حيرة مما يحدث ولا أحد يفهم شيئًا، خرج شريف من غرفة ياسمين وخلفه والده وذهبا إلى غرفة شريف تبعهما والدي، كانت أمهما تهمهم بكلمات متناثرة وهي تبكي بحرارة فهم الجميع ماحدث ووافقها البعض على تحرير محضر بالواقعة والبعض الآخر كان يرفض نظرًا لسمعة البنت وحتى لا يضيع المستقبل الباهر الذي ينتظر شريف، لكن فجيعتها في شرف ابنتها الذي فُقِدَ جعلها لا تفكر سوى في حقها وحرصًا من الجميع على صحتها التي بدأت تدهور في التو واللحظة لم يعارضها أحد بعد إصرارها.

حينما دخل والدي غرفة شريف سمع الحاج حسين وهو يصيح بابنه ويهمّ لضربه فحاول منعه وسمع وسط الصخب الذي كان يدور بينهما كلمات فهم منها ماحدث، كان الحدث جللًا بالنسبة لوالدي وقبل أن يقول شيئًا دخلت والدة شريف وتبعها الجيران ولأول مرة لم يعارضها زوجها عندما وجدها على هذا الحال تقذف شريف بكل ماتطوله يدها مع سبِّه ونعته بكل الصفات السيئة التي تذكرتها وقتها.

- وهل دخل السجن فعلًا؟

- لا..

- كيف ذلك؟

- لا أعرف، لكن كل ما أعرفه أن ياسمين رفضت أن تقابل السيئة بالسيئة.

تنهد ثم قال بابتسامة ماكرة:

- كم هي إنسانة رائعة.

نظر إليها فوجد أن جملته الأخيرة لم تجد صداها عندها، امتقع وجهها وبدت شاردة وغير منتبهة لأيٍّ من حركات يده التي حاول لفت نظرها بها، إلا عندما علا صوته عندئذ انتبهت ونظرت إليه لكنها لم ترَه وكأنها تلتفت إلى مصدر الصوت الذي خطفها للحظة من أفكارها ثم تعود إليها مرة أخرى لكن ناظرة إلى مكان آخر:

- ماذا بك؟

- لا شيء فقط كِنت أفكر فيما رويته.

- أراك قد تأثرتِ كثيرًا.

- نعم، فكما قلت لك كنت لا أعترف بصحة تلك الحوادث.

حاولت أن تزيح عن وجهها الجمود الذي أصابه فابتسمت ابتسامة اللامبالاة وقالت:

- ولكني لم أسمع عن تلك الحادثة ربما كانت طي الكتمان أو ربما لا أتذكر، أليس كذلك؟

- الأرجح أن تكوني لم تتطرقي إليها من الأساس، لكن أنا أذكرها جيدًا لأنها كانت بعد أحداث 11 سبتمبر مباشرة التي وقعت في أميركا.

كان الأمل قد بدأ يدب في قلبها أثناء سماعها الحادثة، أما الآن وهي تقترب شيئًا فشيئًا من كل المعلومات التي تريدها فقد تسرب الأمل إلى كل جزء بها فبدأت تشعر بارتياح وأن بينها وبين حُلمها خطوة واحدة. تحولت اللامبالاة من التصنع إلى شيء أصابها بالفعل وحاولت أن تنهي الحديث عن تلك الحادثة بسؤالٍ تحتاج إلى إجابته بشدة:

- دعنا من هذه الحكاية؛ فهذه الحوادث تذكِّرني بمصاصي الدماء، سألتك عن أشياء كثيرة في حياتك ولم أهتم بطفولتك بالرغم أنها هي التي تكون أشياء متعددة في شخصية الإنسان وتترك له أجمل الذكريات، ما هو الحي الذي نشأت به؟

- الزيتون.

إذن هذا هو أول الحبل الذي سأجذبه بكل قوايا ثم أجعله يلتف حول عنقك أيها الطبيب المغتصب. هكذا حدثت نفسها عندما عرفت أين

وقعت تلك الحادثة وزمنها، شعرت بالنشوة والارتياح ورفعت خصلات شعرها التي تنساب على جبهتها، الآن لديها اسم شريف بالكامل واسم الحيّ والعام الذي وقعت فيه الحادثة، لا يهمها أن تعرف أكثر من ذلك.

ارتسم الضيق على وجهها وهي تلتفت إلى كريم وهو يقول:

- لكن شريف ليس مصاصًا للدماء.

إنفعلت قائلة بإبتسامة سخريه :

- أنت على حق، فإذا اغتصب رجل امرأة لا يعرفها يكون من مصاصيّ الدماء أما صديقك فليس له وصف.

- لا أدافع عنه لأنه صديقي بل لأنكِ لا تعلمين كيف سارت حياته بعد تلك الحادثة!!

ابتسمت باستهزاء ثم لم ترد سماع ما يرقّ له قلبها فقد فات أوان ذلك فقالت:

- إذا كان ضميره يؤنبه فذلك أقل شيء وإذا كان...

قاطعها بحدة قائلًا:

- أقل مايقال أنه حتى الآن لايريد الحديث عن أي شيء يخص أيام الطفولة التي لا تمت بصلة للحادثة، يكفي أنه ينظر في عيني عند كل لقاء باحثًا فيها عن نساييي تلك الواقعة وعن احترامي له أيضًا.

لم تلزمها حدته الصمت فقالت:

- هل هذا يكفي؟

- لا لم يكتفِ بذلك بل حرَّم على نفسه الزواج وأثق تمام الثقة أنه لا يمارس شيئًا آخر عوضًا عن ذلك.

أعادت سؤالها ببرودٍ تام:

- وهل هذا يكفي؟

- تقريبا هو أصبح لديه أزمة نفسية ولا يريد أن يذهب إلى طبيب لمعالجته بل يريد أن يظل كذلك يريد أن يتذوق السم الذي أعدَّه بنفسه.

- وهل هذا يكفي؟

غضب قائلًا:

- أنتِ متحاملة عليه كثيرًا.

- بل أنت لأنك رجل مثله تدافع عنه.

قال بغضب وهو يشير للنادل حتى يدفع له ثمن مشروبهما:

- أعتقد أننا يجب أن نذهب الآن فلا داعي أن تتأخري أكثر من ذلك فتتشاجري مع والدتك.

نهضت ببطء وهي تتفحصه، لأول مرة تراه بهذا الغضب منها، لأول مرة يتعجل إنهاء لقائهما.

***

جلست بجواره في السيارة وهو لا يزال غاضبًا يتلافى النظر إليها وهي لا تدري أتعتذر عن غير قناعة منها لترضيه أم تبقى على موقفها، كانت ترى أن بعيدًا عن رغبتها في شحن عقلها وقلبها بمشاعر سلبية تجاه شريف حتى تبدو أمامه قوية عندما تواجهه إلا أنها ترى أنه بالفعل يفوق مصاص الدماء الذي يمتص الدماء رغمًا عنه حتى يبقى على قيد الحياة أما هو فما الذي أرغمه على مصِّ شرف فتاة كل ما اقترفته من ذنب أنها خُلِقَت من نفس الرحم الذي جاء به إلى الحياة!!

تنامى إلى ذهنها شيء آخر تعتقد أنه أهم من حيرتها في مصالحته، يبدو أن شريف مقرَّبٌ جدًا إلى كريم، كما يبدو أنه مازال يحترمه رغم مافعله بل ويدافع عنه، وتظن أنه عندما قرر أن يتحدث عنه ويروي قصته أنه توقع أن تظهر تعاطفًا معه بعد أن يحكي لها عن مآساته التي يعيشها بعد الحادث، وربما هذا ما أثار غضبه من ردة فعلها، ربما ندم على إفشاء سر صديقه خاصة مع أحد يراه ليس ببشرٍ، ثم أطالت التفكير بنقطة هامة.. كيف سيتقبل استغلالها لشخص يقدرِّه هكذا!؟!

تبني كل آمالها على حبه الجامح لها فهل هذا يكفي!؟!

أخذها من حيرتها وهو يقول:

- أنا آسف، انفعلت عليكِ.

- وأنا أيضًا آسفة لم أراعِ أنه صديقك.

وجدت نفسها تعتذر دون أدنى تفكير، فقد فاجأها اعتذاره، كانت تظن أن أقصى مايمكنه فعله أن يحاول محادثتها، لا أن يعتذر لها، للحظات نسيت ما كانت تفكر به لتستمتع برقته معها وحبه لها، هي التي لم تراعِ صداقته لشخصٍ مقرب منه وهي التي تحدثت تارة بغضب وصوت عالٍ وتارة ببرودٍ ليأتي الاعتذار منه في النهاية.

ساد الصمت بينهما مرة أخرى فغاصت في نومٍ عميق واستيقظت على يده وهي تلمس شعرها بحنان، فتحت عينها وجدت نفسها أمام البناء الذي يقع به مكتبه حيث تركت سيارتها وسافرا بسيارته :

- الحمد لله على السلامة.

- الله يسلمك.

- قودي سيارتك وأنا سأسير خلفك حتى أوصلك إلى منزلك.

- لا داعي فأنا...

- لا تناقشي.. لن أدعكِ تعودين بمفردك فقد تأخر الوقت.

لم تجادله برغم خوفها من أن يراها أحدٌ خاصة الدتها، كما أنها لا تحبذ أن يعرف عنوان منزلها. شيء بداخلها يحدثها دائمًا أن هناك يومًا سيأتي للهروب منه ومن هذا الحب، لكنها كانت منهكة ولا تتحمل المجادلة فانصاعت لأمره في هدوء.

***

دخلت إلى منزلها وقد تحققت مخاوفها فقد رأتها والدتها من شرفة غرفتها بينما كانت تشكر كريم على يومهما الممتع وإيصاله إياها، ما إن رأتها والدتها حتى انطلق فمها في إلقاء الكلمات دون توقف، كانت هاجر تشعر بإرهاق شديد في جسدها بالإضافة إلى الجديد الذي عرفته فأغرق عقلها في التفكير به، فكانت تسمع والدتها بأذن واحدة والأخرى يتردد بها حديث كريم عن شريف وياسمين، نصف عقلها يحاول ألا ينضم إلى النصف الآخر الذي يفكر فيما يمكن فعله ويحاول أن يبقى يقظًا لكلمات والدتها التي كانت لا تخرج عن الالتزامات التي يجب أن تتبعها السيدة الأرملة حتى تظل حسنة السمعة، وبرغم أن هاجر كان لديها ردود لكل كلامها بل وهجوم أيضًا عليها فلم تذكر حقًا واحدًا من حقوق المرأة الأرملة، فكان لديها ماهو أهم من مناقشة حقوق المرأة فظلت صامتة واقفة في مكانها تستمع إليها إلى أن صرخت بها والدتها قائلة:

- لماذا لا تجيبين!!

- على ماذا!!

- من الذي كان يوصلك في هذا الوقت المتأخر؟

- كريم.

- إذن أنتِ مازلتِ على جنونك هذا؟

قالت بهدوء لا يوازي العاصفة التي تملكت من والدتها:

- نعم مازلت ولو سمحتِ بلّغي هاني أن يحضر غدًا إلى هنا ضروري وأن يحضر معه التقرير الطبي الذي يثبت حملي فقد تأخر كثيرًا.. تصبحين على خير.

اتسعت عينا والدتها وهي تراقب ذهابها إلى غرفتها وكأنها لم تقل شيئًا فعلا صوتها بالجملة التي دائمًا ترددها على أسماعها:

- ستندمين على كل ماتفعلينه هذا.

***

استطاع كريم ألا يترك غضبه من هاجر يتملكه، فأغفل قلبه عن لحظاتهما الأخيرة معًا والتي شعر فيها بقسوة منها، وظلّ يتذكر لحظاتها وهي في أحضانه تتقبّل لمسته لها وهي ترغب بها واثقة به، أراد أن يلتمس لها العذر في أسلوب حديثها معه وكلامها عن صديقه بأنها مهما كانت ناضجة وذكية ومثقفة فهي بالنهاية أنثى وماذا أبشع من

الأغتصاب ممكن أن تصاب به الأنثى ؟! لا مفر من تعاطُفها مع ياسمين ورؤيتها لشريف في أبشع صوره.

كانت تلك هي طريقته معها منذ أن عرفها أن يبحث لها دائمًا عن أعذار حتى وإن كانت واهية حتى يغفر لها أي آلام، لايريد أن يحمّل قلبه منها مالايطيق؟! كان يشعر في البداية أن هناك مشاكل بينها وبين زوجها وكان يشعر بضيقٍ عندما تخفي عنه، كان يحكي عن زوجته والخلافات بينهما حتي يشجعها أن تكسر حاجزًا هامًا بينهما، لكنها اتخذت من الصمت طريقًا فكان يخلق لها الأعذار، وحتى عندما شعر أنه أصبح يحتل المساحة الأكبر في قلبها لكنها مازالت على صمتها فيخلق لها أعذارًا جديدة فهو إن كان لديه فضول لمعرفة شيء عن عاطفتها وحياتها مع زوجها فهو لديه دافع أقوى من الفضول لمعرفة ذلك وهو إزاحة أي حائلٍ بينهما.

ذات يوم أثناء حديثهما عبر الهاتف وبعد دقائق طويلة تجرعت فيها من كلمات العشق ما يرضي غرور أي امرأة، تجرأ وسألها:

- حتى اليوم يكون زوجك غائبًا عنك تقريبًا ثلاثة أشهر، ذكرتِ مرارا أنه يحبك كثيرًا.. ألم يَشتَقْ إليكِ أو على الأقل إذا كان يحبك هكذا لماذا يتركك دون أن يشعر أنكِ أنثى وتحتاجين إليه ؟!

- وهل ثلاثة أشهر كثير؟ لا أعتقد..

- أنا أتحدث عن شخص يحب زوجته ولديه مقدرة على أن يذهب إليها أو يدعوها إليه.

لم تجب فلم يكن في جعبتها ما تقوله فهو لا يستطيع العودة ولا يستطيع دعوتها إليه. والغريب هنا أنها لم تفكر في زوجها، لم ترد حتى معرفة إن كان قد أوحشها أم لا !! بل أخذت تحلل كلمات كريم وتحاول معرفة مغزاها، رفضت فكرة أنه يدعوها إلى علاقة تشبع بها رغباتها، فقد غلبت ثقتها به وساوس الشيطان لها، لكن ظلت كلماته لغزًا لها.

أما هو فكان يريد أن يثبت لها أنها تحبه حتى وإن لم تبُح بها، فقد كان جسدها آخر مايرمي إليه قلبه، أراد أن يثبت لها أن هناك خللًا ما بينها وبين زوجها وأنها لا تسعى لترميمه لأنها أحبته هو.

لكنها لم تدرك رسالته.

***

دخل كريم منزله وجد سمر كما توقعها، تجلس أمام تلفاز وتسدد له نظرات لا تحمل سوى معنى واحد أن يستعد لمشاجرة ساخنة، لكنه ألقى عليها التحية ولم يكترث لنظرات الوعيد بعينيها، جاءا طفلاه يحتضناه فقبّلهما وجلس معهما على الأرض يلعبون سويًا ونسى معهما الدنيا، ثم انتبه بعد قليل لصراخ سمر في الطفلين وهي تجذبهما بقوة إلى غرفتهما ثم تعود لتصيح به هو أيضًا:

- أين كنت طوال اليوم؟

قال وقد أجاب أخيرًا على نظرات الوعيد بمثلها قائلًا:

- أخفضي صوتكِ.

تركها وذهب إلى غرفتهما لكنها تبعته وكررت سؤالها لكن بأقل حدة:

- سألتك أين كنت طوال اليوم؟

- ألم تكوني متواجدة عندما قالت هاجر..

قاطعته بغضب قائله:

- إذن أنت سافرت معها؟!

- نعم.. فهذا عملي.

- عملك؟! وعملك هذا تظل به حتى منتصف الليل؟!

- نعم.

كان يحدثها وهو يبدّل ملابسه وقد أدار لها ظهره فأمسكته من كتفيه لتدير وجهه إليها، أجبرته على النظر بعينيها ثم نظرت له وعيناها يملؤها الشك قائلة :

- ماذا بينك وبين هذه المرأة؟

- لا شيء..

- كاذب..

نظر إليها ولم يجب فكانت هي المرة الأولى التي تحدثه فيها هكذا وتنعته بصفة سيئة. أزاح يدها وقال وهو يسير باتجاه باب الغرفة:

- سأنام اليوم في غرفة الطفلين وعندما تجيدين الحديث إلى زوجك سنتحدث.

كانت حجة له حتى لا يكمل حديثه معها فهذا اليوم نقطة تحول في علاقته بهاجر ولا يريد أن يختمه بمزاجٍ عكر.

***

استيقظت هاجر ولم تتوقع أن تتذوق النوم بعد هذا اليوم المليء بالأحداث لكن النوم أتى لها ملاذًا من كل شيء وكأنه هروبٌ لها من الواقع، دخلت خادمتها تبلغها بقدوم هاني، تأففت قليلًا فقد أتى مبكرًا حتى قبل أن تستيقظ ولكن هذا يدل على أهتمامه مما أعطى لها تفاؤلًا بأنه سينصاع إلى أمرها.

***

ألقت عليه التحية وكأنها قائد استدعى مجندًا ليصدر إليه تعليماته، جلسا وكانت والدتها معهما، تحدثت هاجر مباشرة وبلهجة آمرة :

- منذ حاوالي ثلاث عشرة سنة كان هناك محضر بواقعة معينة في حي الزيتون.

أعطته ورقة كانت مطوية في يدها وهي تستطرد:

- هذه كل المعلومات التي تساعدك في الحصول على ذلك المحضر، أريده في أقرب وقت.

أخذ منها الورقة وهو يقول بابتسامة باهتة:

- أريدك أن تعرفي شيئًا، أنا لا أساعدك خوفًا منك فأنتِ لا تملكين شيئًا، حتى وإن كنتِ تتحدثي عن استيلائي على ميراثك فأنتِ أيضًا لا تملكي أن تثبتي ذلك، أنا فقط أساعدك حتى أبقى بجوارك وأحميكِ من جنونك هذا، لا أنكر أنني أريد أن يصبح لديكِ مال حتى لا أتحمل عبء مصاريفك لكني لا أثق فيما تفعلين.

- لا يليق بك دور الأخ أو الناصح، يليق بك فقط أن تكون خائفًا على سمعتك وسمعة شركتك وألا تريد تحمُّل عبء مصاريفي أما أن تحميني من جنوني وتبقى بجواري فلا.

- نعم أريد أن أحفظ سمعتي وسمعة شركتي وعدم تحمُّلي لمصاريفك ولكن ليس هذا كل شيء.

- لا بل هذا كل شيء، لا تتعب نفسك بكلام لن يفيد.

نظر إليها وحاول كتم غيظه قائلًا:

- لقد جاء أشقاء زوجك وأخذوا التقرير الطبي الذي ندعي فيه أنك حامل، حصلت عليه من أكبر معمل طبي في مصر ومع ذلك رأيت في عينيهم شكًّا به.

- اتركهم بشكهم.

- أريد توكيلًا منك للمحامي ليوقف إجراءات الميراث.

- حسنًا.

فتح الورقة التي أعطته إياها، قرأها ثم قال :

- أنتِ تلعبين بالنار.

هبّت واقفه ثم قالت بغضب:

- أنت وأمي ليس لديكما سوى أنني ألعب بالنار وأنني سأندم، اتركاني بحالي لا أحد منكما يشعر بي.

سارت خطوات قليلة ثم التفتت إليه قائلة :

- أريد المحضر في خلال أسبوع.

وقف منزعجًا وهو يقول:

- تطلبين مني محضرًا منذ ثلاث عشرة سنة في أسبوع واحد!!

- أليست لديك أتصالات وعلاقات بمسؤليين، أليس لديك مال!!

- بلى لديّ لكن..

قاطعته وهي تتجه لغرفتها وصوتها يعلو:

- أسبوع واحد فقط ليس لدي وقت أكثر من ذلك.

***

مرَّ الوقت بطيئًا عليها وكانت كمن ينتظر حكم بالإعدام أو حكم بالبراءة، فكرت أن تترك الأمر برمته وتجبر أخاها على أن يعطيها حقها في ميراث والدها لكنها كما قال لها لن تستطيع فعل شيء، فكرت في مؤهلاتها فهي تتقن لغتين الإنجليزية والفرنسية لكنها لاتفقه شيئًا عن برامج الكمبيوتر، لكن يمكنها أن تتعلم ثم تعمل مع أخيها، تحمست للحظات لكنها تذكرت أن ما ستكد من أجله طيلة الشهر كان زوجها يمنحها إياه كنقودٍ شهرية لها دون جهد، وأنها لا تطيق الروتين اليومي والرؤساء مثلها كمثل كريم، تذكرت أن من حقها شرعًا ربع ماترك زوجها يمكنها أن تبدأ به مشروعًا خاصًا بها، لكنها بالطبع ستترك المنزل الواسع ذا الاثاث الراقي والسيارة الحديثة أيضًا وتسكن بمنزل آخر وتستقل سيارة أخرى، تذكرت مكانتها الاجتماعية التي ستتخذ منحدرًا ليس هينًا بينما ستتغير مكانة أشقاء زوجها الاجتماعية بما

ذاقت مرارة الغربة من أجله، توقف عقلها عن التفكير فقد صال وجال وعاد إلى نقطة البداية وقرر ألا يحيد عن الطريق الذي رسمه مسبقًا.

في نهاية المدة التي حددتها لأخيها كان المحضر بين يديها، استخدم هاني كل اتصالاته بالمسؤلين وعلاقاته حتى يحصل عليه، أعطاها إياه صامتًا متيقنًا مما تنوى فعله، لذلك لم يتحدث فيما لا يجدي، بينما كانت هي تنظر إلى الورقة التي بين يديها وكأنها سلاح حاد ستدق به عنق بشري إن لم ينصاع لأمرها، لم تتوقع يومًا أن تبتز أحدًا لكنها لن تبتزه لتأخذ ماليس لها، بل هو الذي يريد حرمانها من حقها، يريد أن يحرمها من جنينٍ في أحشائها من الرجل الذي أحبَّته ولن تتزوج بعده فيترك ذكرى منه لها!!

هكذا كانت تحاول أن تعيد على مسامعها مبرراتها القديمة لتمنحها القوة والصلابة، لكنها اعترفت لنفسها أنها لم تصنع الفارق المرجو، لم تقوِها ولم تصلب قناعتها، فما هي سوى مراوغة جيدة، فهي الآن ترى زوجها ذكرى جميلة تتذكرها عندما تفرض وجودها الحياة وليس كما كان بالأمس القريب عندما كان احتساؤها القهوه كل يوم صباحًا أمام الشرفة من أجل أن تستعيد ذكراه وتسعد بها، الآن هناك رجل آخر ما إن تتذكر أنه ربما يصبح ذكرى حتى يفيض الدمع أنهارًا، رجل علمها كيف تعشق وكيف يجب أن تُعشَق. رجل عشقها بكل مافي الكلمة من لوع العشاق وآلامهم.

إن صدَّق الناس كذبتها بأنها تريد طفلًا من رجل أحبته، فهي أصبحت لا تصدق فلقد أصبح لديها أمنية أخرى؛ أن يكون لديها طفل من كريم، كانت تواسي نفسها بأن الطفل الذي تسعى إليه هو الذي سيفتح أمامهما أبواب المال الموصدة، ويمكنهما بعد ذلك أن يحظيا بإخوة له كما يشاءان.

سعت للقرب من كريم بحثًا عن السر الذي يرتعد منه شريف، وبعد أن وصلت إلى كل ما أرادت بالإضافه إلى منحها القدر حب كريم لها، بدأت الأفكار تحوطها وتقفز أمامها، أرادت أن تصرخ بكل مافيها، تحشرج صوتها وسكن الصراخ في حلقها، كانت ما إن تهتدي إلى نسيان الأمر، تظهر حاجتها للمال فتنسى أن تنسى الأمر.

***

كأنها تقف أمام حائط صدٍّ خلفه الحياة إما أن تكون رافضة لها أو مقبلة عليها، ولكي تعلم ماذا أعدت لها يجب أن تتسلق هذا الحائط وتعبر من خلاله إلى تلك الحياة، فقد آن الآوان.

ارتدت ملابسها التي اختارتها تحمل طابع جدّيًا، كما أضفت الصرامة على ملامحها وكأنها ذاهبة إلى ساحة حرب، حاولت أن تداري بمظهرها الخارجي الرجفة التي شملتها من الداخل.

انتظرت في العيادة إلى أن غادرت آخر مريضة، هكذا كان يعاقبها شريف وربما كان يأمل أن تملّ الانتظار فترحل، أشارت إليها الممرضة

أن تتفضل بالدخول، نهضت وهي تستعيد بداخلها الحديث الذي أعدته مسبقًا له وانتقت فيه كلمات قاسية لإذعانه. لكنها لم تتذكر منه الكثير.

كانت تسير بخطى وئيدة واثقة رغم رعشة جسدها وهزة كيانها. لكنها استطاعت أن تتماسك. ألقت التحية وتجنبت مصافحته كبداية غير مبشرة له تنذر بقوتها.

لكنه لم يقف ليرحب بها وهذا تجاهل صريح منه ينذر بقوته أيضاً.

(10)

كانت نظراته جريئة، قال وهو يدعوها للجلوس :

- أعتذر أن أخَّرتك إلى هذا الوقت لكنك لم تحددي موعدًا سابقًا.

شعرت بالإهانة في هذا الانتظار لكنها أبدت عكس ذلك فقالت:

- لذلك فقط أنا انتظرت.

وكأن لم يكن هناك لقاء سابق قال:

- خيرًا مما تشتكين؟!!

ضحكت بسخرية قائلة:

- حقًا؟ ألا تعرف ما الأمر؟

- إذا كان أمرًا جديدًا فأنا في خدمتك.

- إذن أنت تعلم ماهو الأمر..

- أنا أخبرتك سابقًا..

قاطعته واضعة الورقة التي تحوي المحضر على مكتبه قائلة بلهجة آمرة:

- أقرأ..

احتقن وجهه وهو يقرأ وازدرد ريقه بالقوه وتحوَّل عرقه من حبيبات على جبينه إلى خط رفيع من المياه ساد جسده بالكامل، عادت به الورقة إلى الوراء قبل ثلاثة عشر عامًا، إلى يوم لم ولن ينساه طيلة حياته، كان لهيب هذا اليوم قد سكن فجاءت تلك الورقة بركام الماضي لتوقظه من جديد، ما إن وقعت عيناه على اسم ياسمين حتى تلألأت العبرات بعينيه، وضع المحضر أمامه على المكتب ثم غطى وجهه بكفّيه محاولًا اجتياز الذكريات ومقاطعة ملاحقتها له، قال بصوت مكسور ينبئ ببكاء على وشك الانفجار:

- هذا ما جاء بكِ إلى هنا!! جئتِ من أجل المساومة، إما أن أخالف ضميري المهني وإما أن تفضحي أمري!!

كانت قد تأثرت قليلًا عندما رأت لمعة الدموع بعينيه، لكن زال تأثير ذلك عندما ذكر كلمة الضمير فقالت بحدة وبغضب أنثى ثائرة :

- لا يليق بك التحدث عن الضمير.

خيم الصمت لدقائق معدودة ثم قال:

- وإن رفضت؟

قالت وعيناها تنطقان بالشر:

- سؤال غبي ولكن إجابته حاضرة.. التشهير.. لن أترك في جهدي جهدًا حتى تتوقف عن ممارسة الطب.

كانت كلماتها تسدد له طعنات تطرحه أرضًا وبالكاد يستطيع الوقوف مرة أخرى، حاول أن يستوعب ما يحدث وباتت أسئلة كثيرة تتوافد إلى ذهنه، من أين علمت بتلك القصة، قصة قديمة لا يعرف عنها أحد سوى أفراد قلائل!! هل توصلت لأحد منهم!! لكن كيف ذلك!! فمن اين لها أن تعرف مكان نشأته؟! ترى ماذا في جعبتها إن رفض؟ هل تستطيع فعلًا التشهير به؟ ولمَ لا فيبدو عليها الثراء والثراء في مصر يعني تزاوج بين المال والنفوذ وإلا كيف لها أن تصل إلى حياته الأولى وتحصل على محضر حُرّرَ منذ أكثر من عشرة أعوام؟! أصبح رداؤه الأبيض رهن صنيعها، يمكنها تمزيقه برصاصة تصيب سمعته وتنثر مجهوده في عمله السنين الماضية في الهواء.

لكنه أيضًا لديه علاقات بمسؤلين ويمكن أن يهددها بتشهير مماثل أو أي شيء آخر، لكن هل تقارن خسارتها بخسارته، هو سيفقد مهنته التي تدرّ عليه دخلًا لم يحلم به، فمن ذا الذي يأمن على زوجته مع طبيب اغتصب أخته؟! وإن كانت خسارتها تتساوى معه أو حتى تفوقه فلن يكون الرابح، فما يهمه هو ما سيخسره هو وليس ما سيخسره الآخرون.

شعر بقلة حيلة ووهن ولم يحتاج الأمر منه تفكير أكثر من الدقائق التي منحته إياها وهي ترقبه في صمت، وضع إصبعه على جرس صغير بجانبه، وبعد ثوانٍ دخلت ممرضة، أشار إلى هاجر قائلًا:

- تفضلي لأفحصك ونحدد الوقت المناسب لإجراء العملية.

اضطربت ونظرت إليه غير مصدقة بينما كان ينهض متجهًا إلى السرير الطبي المختبئ خلف ساتر من القماش وبجواره جهاز السونار، نهضت بخطى ثقيلة وهي تحدث نفسها، أهكذا الأمر انتهى؟ الن يثور؟ ألن يتعدى عليها بالسب أو حتى ضربًا؟ كانت غير مستعده لإتمام خطتها بهذه السرعه، جائت وقد غاب عن ذهنها موافقته، ظنت أنها ستطارده في كل مكان وتوسع من دائرة تهديداتها له حتى يخضع لإرادتها، لكنه كان يسبق خطواتها، فما لا تعلمه عنه أنه إذا تعلق الأمر بمصلحته فيكون حاسم إلى أبعد مدى. تذكرت كيف عرفت بتلك الحادثه بمحض الصدفه وها هو يوافق في دقائق قليله وبأقل مجهود يذكر. شعرت في تلك اللحظات أن الطريق الذي أصرت أن تسير فيه هو الذي يسعى إليها وليست هي من تسعى إليه.

انتهى من فحصها ثم عاد إلى مكتبه وخرجت الممرضة مرة أخرى ثم جلست هاجر وهي تهندم ملابسها، والتفتت إليه وهو يقول:

- فقط للعلم ليس معنى إجراء العملية وجوب حدوث الحمل، يمكن ألا يحدث حمل.

- أعلم..

تنهد وهو يسألها:

- ماالضرر الذي سأتعرض له إذا أصبحتِ حاملًا؟

- لا أفهم..

- زوجك كان يبدو عليه الثراء وأنتِ ليس لديكِ أطفال و..

- فهمت مقصدك..

- أنتظر إجابتك.

- لن يكون عليك ضرر.

- كيف؟ إن وصل الأمر إلى القضايا سأكون شريكًا معكِ بالطبع.

- وأنا سأنكر معرفتك بأمر وفاة زوجي.

نظر إليها بريبة فأفعالها لا تجعله يثق بكلامها، قالت :

- أعدك بذلك، كما أن الإجراءات قد سبق ووقَّع عليها أحمد بخط يده.

هدأ شكه نحوها قليلًا ثم قال:

- لا أستطيع أن أجزم إلى أي شيء سينتهي الأمر إذا تحول إلى قضية، فستكون هذه قضية جديدة من نوعها

- لا يوجد لدينا قانون يمنع امرأة من الحمل من زوجها.

- لكنه توفي.

- لكن الحمل سيكون منه.

- لا أعلم بماذا سيعاقبك القانون فهذا أمر دخيل على مجتمعنا.

- لن أنسب طفلًا لرجل ليس أبيه، لذلك أنا لست خائفة.

- الأمر ليس ذلك فقط ولكن...

- أرجوك دعنا من ذلك فهناك احتمال ألا يصل الأمر إلى المحكمة، إذا كنت تفكر في ذلك لأن هناك ورثة فهم لا يملكون المال لإنفاقه على القضايا، إن كان ذكرًا سأغريهم ببعض من المال وإن كانت أنثى فسيحظون بالكثير أيضًا، كما أن شهوتهم للمال لن تصمد في أحبال المحاكم الطويلة التي تقدّر بالسنين..

- هل تعتمدين على ذلك فقط !! ماذا لو...

- أرجوك لا فائدة من الحديث فكل ما ستطرحه فكرت به مسبقًا وإن كنت سأخسر فحتمًا سأكسب المزيد.

صمت قليلاً ثم قال:

- سنبدأ للاستعداد لإجراء العملية الأسبوع القادم.

***

أحاسيس مختلفة تنتابها وهي تستعد للذهاب إلى المستشفى لإجراء العملية، تكاد تجزم أن هناك شيئًا خفيًا قابعًا في ركنٍ مظلم من قلبها يتمنى عدم فلاح الأمر، لكن فات أوان ذلك.

كما شعرت سابقًا أن هذا الطريق هو الذي يسعى إليها فقد تأكد شعورها عندما أخبرها كريم أن لديه أعمالًا هامة الفترة القادمة وكان يرجوها ألا تغضب منه إذا لم يتمكن من رؤيتها، كانت تفكر كيف تلقاه وهي تستعد لحمل جزءًا من غيره في أحشائها، وها هو القدر باعد بينهما.

خرجت من غرفتها لتجد والدتها بانتظارها، لم تشأ أن تتركها في هذا الظرف بمفردها، فهما الآن وحيدتان ليس لهما أحد، لم تطل النظر إليها كثيرًا بل خرجت متجهة مباشرة إلى الباب وبيدها حقيبة صغيرة تحملها مع حقيبة يدها، ترتدي نظاره سوداء وكأنها تتوارى من أعين الناس، ظل الصمت حليفهما إلى أن وصلا إلى المركز الطبي ثم هناك افترقا.

بعد سويعات قليلة كانت في منزلها، أخبرها الطبيب أنه زرع برحمها أكثر من جنين ولكن ذلك لا يعني بالقطع الحمل بتوأمين أو أكثر ولكن ربما يحدث، كتب لها بعض الأدوية وطلب منها أن تنتظر إما إن تعاودها الدورة الشهرية أو لا، وفي الحالة الثانية تقوم بإجراء تحليل حمل رقمي وموافاته بكل جديد.

نحفت في تلك الفترة فكان الفكر يأكل منها من جهة وقلة الطعام من جهه أخرى، شحب وجهها وذبل وكسا السواد أسفل عينيها، ساعد على جفافها انشغال كريم عنها، فظلت حبيسة غرفتها، تمر عليها الأيام ببطءٍ، ما إن يأتي النهار حتى يتشبث بالسماء وما إن يطرده الليل عنوة

حتى يتشبث هو الآخر، هكذا كان شعورها بهما أنهما لا ينتهيان، لا يقطع ذلك الإحساس سوى مكالمات كريم القليله والتي لا تستمر كثيرًا يحكي بها شوقه لها أكثر مما يسمعها فعندما كان يصمت ليمنحها فرصة الإفصاح عن مشاعرها تتحجج أنها تريد سماع كلماته الحلوة.

مرَّ الوقت الذي حدده لها شريف وغابت عنها الدورة الشهرية، ظلت تنتظر ماتراه في الأفلام العربية، أن تفرغ ما في جوفها أو أن تفقد وعيها، لكن شيئًا لم يحدث، ظنت أن ربما حالتها النفسية وانتظارها يكون هو السبب في تغيير هرمونات جسدها وبالتالي تغيير ميعاد الدورة الشهرية، وكأنها لا تريد النتيجة الإيجابية التي كانت تسعى إليها، انتظرت يومين آخرين ثم جرَّت قدميها إلى المعمل الطبي لإجراء اختبار الحمل، جلست نصف ساعة تنتظر النتيجة، تحرِّك ساقيها بشدة لفتت انتباه من حولها ثم سمعت من ينادي اسمها التفتت إليه فطالعها وهو يبتسم، هبَّت واقفة كأنها لم تفهم شيئًا من ابتسامته، سألته مستفسره عن النتيجة فأجاب:

- مبروك أنتِ حامل.. سنجري إذن اختبار الحمل الرقمي كما طلب الطبيب، انتظري بضع دقائق أخرى.

حاولت أن تبتسم وتبدو طبيعية مثل أي امرأة ظلت سبع سنوات بدون أطفال، جلست وهي لاتدري ماذا بها، ولماذا تبحث عما بها الآن فقد عاشت فيه منذ أن عرفت قصة شريف، فلماذا الآن تريد معرفة السبب؟! يجب أن تفرح الآن فحلمها يتحقق وسلاحها وأمانها في الحياة في رحمها، أيًا كانت الظروف والعقبات والعواقب التي ستواجهها يظل

سلاحها معها، خطتها سارت كما أرادت وحققت ما تمنت لابد أن تعم الفرحة حياتها حتى إن اضطرها الأمر لأن تخدع نفسها بنفسها.

***

دخلت إلى منزلها راسمة ضحكة مزيفة على شفتين باهتتين، وجدت والدتها بانتظارها تنظر إليها وعيناها تتساءلان وتنتظر الإجابة، لم تكتفِ بابتسامة ابنتها حتى تستشف منها شيئًا، فما عادت تعرف ما يحزنها ومايفرحها، أجابت هاجر دون سؤال وهي تتصنع البهجة:

- باركي لي يا أمي، أنا حامل.

لم تدرِ هل تفرح أم تحزن، لم ترِد أن يأتي الخبر المنتظر سبعة أعوام لتقابله بذلك الفتور، لم تدرِ هل تبارك لها أم تشفق عليها مما هو قادم، لكن لا مفر من منحها طاقة إيجابية فهي حتمًا ستلقى مشاكل وتحتاج إلى الدعم حتى وإن كانت تعلم أنه زائفٌ، ربتت على كتفها قائلة:

- مبارك إن شاء الله.

تركتها وهي تتصنع الفرحة مثلها وترسم ابتسامة باهتة على وجهها وذهبت إلى غرفتها، ذهبت هاجر أيضًا إلى غرفتها ظلت بها إلى أن حلّ المساء فذهبت إلى شريف مرة أخرى.

***

لم تستطع إعادة تمثيل الفرحة ولم تجد أنها في حاجة إليها، فوالدتها يهمها أمرها فلا تريدها أن تشعر بالحزن الكامن مجهول المصدر الذي بداخلها فهي التي تساندها رغم اعتراضها على ماتفعله، أما شريف فلا يهمها في شيء فلتدخر طاقتها لمن يهمها أمرهم.

كان يطالع التقرير الطبي مبتسمًا، رغم اعتراضه في البداية لكن هذا يعدّ نجاحًا له.كطبيب بالإضافة إلى أنه يكون قد نفَّذ اتفاقهما فتتخلى عن فكرة التشهير به وضياع مستقبله المهني، قال وهو يكتب، فخورًا بنجاحه:

- مبروك.

- أشكرك.

- هذه أسماء لأطباء كُفء يمكنك متابعة حملك مع أحدهم.

رفعت حاجبيها مندهشة وقالت:

- لماذا لا أتابع حملي معك؟!

- لقد نفَّذت وعدي معكِ وأنتِ ملزمة أن تنفذي وعدك بأن تنسي أمر تلك الورقة، لكن لا أستطيع أن أتابع الحمل معكِ، وأرجو منكِ أن تحضري إليَّ تلك الورقة، أعلم أنكِ إن أردتِ شرًا فستحصلين على مثيلتها لكن أود أن...

أخرجت الورقة من حقيبتها وقالت بصوت مبحوح وهي تعطيها له وقد أغرورقت عيناها بالدموع :

- أنا لست سيئة لهذه الدرجة، صدقني، لا أبالي بحياتك الشخصية، أنا فقط أردت أن أصل لما أريد .

صمتت للحظات ثم قالت :

- أقسم لك أن أنسى أمرك وأمر تلك الورقة.

أخذ الورقة منها وقد شعر بصدقها فاطمأن قليلًا، قالت له في رجاء:

- أمازلت تريد عدم متابعة حملي؟

- سأقول لكِ السبب وأرجو أن تتفهميه، كلما رأيتك تذكرت تلك الحادثة، أنا لم أنسَها أبدًا لكن تكرار رؤيتك يجدد جراحها، أتفهمينني؟

هزت رأسها متفهمة لموقفه ثم نهضا وأعطاها الورقة التي تحمل أسماء الأطباء المقترحة وكتب لها الأدوية اللازمة لحين المتابعة مع طبيب آخر، استوقفها وهي تتجه إلى الباب قائلًا:

- هل يمكنني أن أعرف كيف توصلتِ إلى تلك الورقة؟

***

عادت سجينة غرفتها بل ازداد سجنها بحبس روحها في هموم ومشاكل محتملة، كانت تأكل فقط من أجل جنينها لولاه ماكان للطعام أن يرى معدتها التي انكمشت من قلة زوّارها، كانت جالسة القرفصاء على سريرها تنظر في الفراغ تتأمل اللاشيء، تفكر في المجهول القريب، علاقتها بكريم، أما المجهول البعيد وهو نتائج ما فعلته فلم يحن دوره بعد.

فاجأها الهاتف برنينه، نغمة مميزة خصصتها لكريم، نظرت إلى الهاتف مشتاقة أن تجيب فقد غاب عنها تلك المرة طويلًا، لكن هذه أول مرة يتصل بها منذ أن علمت بحملها، كانت في بداية معرفتها به تشعر أنها تخون زوجها ولكن بعد أن أحبته وحملت من زوجها تشعر الآن أنها خانت كريم، وضعت بداخلها بذرة رجل غيره، خانت حبه لها وثقته بها.

قررت أخيرًا أن تجيب فقد غلب الشوق أفكارها. حاولت أن تبدو طبيعية لكن كريم كان لا يُخفَى عليه شيء بها، فهو يعرفها أكثر من نفسها حتى عندما بادلته كلمة أوحشتني فلم يكن إحساسها كما كان دائمًا يسبق حروف كلماتها، كان يسمعها وهو يشعر أنها ليست من قلب يفيض بالحب بل هناك شيء ما تملَّك جزءًا منه ومن عقلها، حتى ولو ضئيل.

شعرت أن علاقتهما على أعتاب حدث مهم، سواء بنهايتها، أو بتتويجها بالزواج، لم تستطع تحديد ما يمكن حدوثه، لم تفلح حتى أن تتوقع

شيئًا ما، كانت مرتبكة وكان يشعر بذلك، طال حديثهما وكان أحيانًا يسألها عما بها وأحيانًا يحاول أن يخفف عنها شيئًا لا يعرفه.

في نهاية المحادثة طلب منها لقاء، حاولت أن ترفض لكنه أصرَّ على ذلك فوافقت، ربما شعرت أن لا فائدة من الهروب .

***

انتظرها في مكانهما المفضل الهادئ الذي نادرًا مايشاركهما أحدٌ به نظرًا لسعته، وقف يصافحها وقد وجد بريقها انطفأ قليلًا، ترفع شعرها إلى أعلى ولم تنساب خصلاتها على جبهتها كعادتها، فبدت بالفعل كما شعر بها عندما كان يحدثها عبر الهاتف، بدت وكأنها تخفي شيئًا ما، لكنه حاول أن يكذِّب حدثه، جلست بجواره في هدوء غير معتاد، فدائمًا ما كانت تداعبه بمجرد أن تصافحه، جلس ثم قبَّل يدها قائلًا:

- هذه القبلة ليست لأني أحبك بل رجاء مني حتى تقولي مابكِ.

رفعت يده إلى شفتيها وقبّلتها ولأول مرة في حياتها تقبّل يد رجل، ولم تشعر بانتقاص في شخصها كامرأة، ربما لأنه يستحق أن تنسى معه ماتذكرته دائمًا مع غيره وهما كرامتها وكبرياءها، وربما لأنه مختلف عن غيره فكلما نسيت معه أي شيء يحول بينها وبينه كلما عشقها أكثر ولمعت بعينه أكثر.

نظر إليها وهو يبتسم فهذه أول مرة بالنسبة إليه أيضًا أن تقبِّل يده امرأة، شعر أنه قد امتلك الأرض وما فيها، وأن مكانته بقلبها كما تمناها.

قالت وعيناها تترقرقان بالدموع:

- عدني ألا تكرهني في يوم من الأيام، أنا أحببتك كثيرًا.

كان ينتظر كلمة أُحِبُّكَ منذ أن أحبها، وشوقه لسماعها كان يحرق قلبه، وكان كل ليلة قبل أن يخلد إلى نومه يطلق لخياله العنان كي يرسم له كيف ستعترف له بحبها فيبتسم ويغمض عينيه متمنيًا رؤيتها بأحلامه وهي تعترف بحبها له، لكن كلماتها التي سبقت اعترافها، أضاعت تلك اللحظة التي كان ينتظرها ليالي طويلة.

هكذا الحياة تذكِّرنا بالرحيل في غمرة العشق.

- ولماذا أكرهك؟ تبدو على غير طبيعتك منذ عودتنا من الإسكندرية، هل صدرَ منِّي شيء أزعجك؟ هل غضبتِ مني لانشغالي عنكِ الفترة الماضية؟ أقسم لكِ...

قاطعته واضعة يدها على شفتيه، حاضنة يده بيدها الأخرى:

- لا.. لا...

- إذن ماذا بك، هل أنت بخير؟

أجهشت في البكاء وهي تنفي برأسها ثم قالت :

- لا لست بخير، فقط أرجو منك أن تعدني بألا تكرهني، لن أطالبك أن تظل تحبني، فقط لا تكرهني.

كان صوتها متهدجًا بالكاد استطاع أن يميز كلماتها وينتقيها من بين عبراتها التي تسيل لتريحها بينما توجع قلبه لوجعها.

- وما هذا الذي يمكن أن يحوِّل محبتك في قلبي إلى كراهية؟!

- أرجوك دعني فقط الآن أبكي على كتفك.

صمت وضمها إليه ومالت برأسها على كتفه وبكت بحرارة، كانت يده تنتقل بين شعرها وذراعها محملة بعطف عليها وعشق وشوق لها فشعرت براحة قللت من دموعها شيئًا فشيئًا إلى أن توقفت.

اعتدلت في جلستها وتناولت علبة سجائره ثم أخرجت منها سيجارة، وضعتها بين شفتيها ثم أشعلتها وأعطتها له وهي تبتسم قائلة:

- أعلم أنك كم تمنيت أن تلمس شفتي.

أخذها مبتسمًا ثم قال:

- من المفترض أن أكون أسعد رجلًا على وجه الأرض فالآن لمست أرق شفتين لأجمل امرأة لكن سعادتي يشوبها شيء.

تعجبت قائلة:

- كنت أظن أنها سعادة خالصة، ما الذي يشوبها إذن؟

- أشعر أنكِ فعلتِ ذلك لأنني لن ألمسهما فعلًا وقلبي يحدثني أن السبب أنك قررتِ إنهاء العلاقه فأردتِ أن تمنحيني شيئًا تمنيتُه وكأنها مكافأة على حبي لك.

صمتت لكنها لم تندهش من تفسيره لتصرفها هذا، فدائمًا يفسر لها ما تعجز عن تفسيره من تصرفاتها، فهي تصرفت هكذا دون تفكير ولم تعرف لماذا فعلت ذلك سوى الآن بعد أن شرح لها ما بداخلها دون أن يعلم أي شيء، حزنت لأنها ربما تفقد شخصًا يفهمها بهذا الشكل .

اقتربت أكثر من وجهه وهو ينفث دخان سيجارته لتستنشق عطره المحمَّل به بعد أن كانت تكره الاقتراب من المدخنين، كانت تستمتع بالنظر إليه بينما الدخان يصنع حوله هالة رمادية اللون فتضيق عيناه قليلًا حتى يستطيع النظر إليها فيروق لها أكثر.

فقال وهو يلف خصلة من شعرها على طرف إصبعه وينظر في عينيها:

- نظراتك نظرات حب لكنها تخيفني.

- لماذا؟

- لأنها نظرات حب ووداع في ذات الوقت بالإضافة إلى عدم ردك عن تفسيري لتصرفك فأشعر أنك جئتِ تودعينني.

- لكني لم أطلب اللقاء بل أنت الذي طلبت.

- ربما كنتِ تفضلين عدم الوداع لكن هذا لا يمنع قرار الفراق.

- أنا لم أقرر الفراق.

قال وهو يطفئ سيجارته:

- ربما، أنا فقط أقول ما أشعر به.

- لكنك لم تعدني بعد.

وضع يديه على خديها وقرّب وجهها من وجهه وهو يقول:

- أرى بعينيك المجهول وقرار الفراق برغم أنك نفيتِ ذلك، ولا أعلم الكثير عن علاقتك بزوجك وأشعر أن تلك العلاقه المضطربة لها علاقة بما تعيشيه هذه الأيام ومع كل ذلك أعدك بألا أكرهك وأن تظلي أجمل ذكرى في حياتي.

عانقته بشدة وكأنها تريد أن تنصهر بداخله وقد عاودتها الدموع وتذوقت حضنه الدافئ لأول مرة، فعرفت كيف يكون الدفء بحضن من تحب، والذي كانت تقرأه في الروايات الرومانسية ولم تصدقه، عرفت ما هو الفرق بين المشاعر التي تقام عليها الحياة الزوجية فتعتقد أنها حب وبين الحب الحقيقي..

كانت يدها ترتعش وهي تعانقه فأدركت أنها جاءت فعلًا لوداعه دون أن تشعر..

***

جلس كريم يتطلع حوله، كان لأول مرة يرى منزل شريف، كان منزلًا مرتبًا لدرجه تبعث الملل، خاليًا من الروح لكنه على أي حال يتوافق مع شخصية شريف التي ورثها عن والده والتي تحوي حب النظام والروتين، لم يتعود شريف أن يدعو أحدًا إلى منزله فبعد أن ترك بيت العائله حبذ أن يظل وحيدًا حتى دون زائر واحد، جاء يحيي كريم مرة أخرى وهو يحضر كوبين من الشاي وقف كريم لمساعدته وشكره ثم قال وهما يجلسان :

- لما أتعبت نفسك، أنا لست غريبًا.

- لكنك أول مرة تزورني وأيضًا أنت أول ضيف يدخل منزلي منذ أن اشتريته.

- حقًا؟

- نعم، فكما تعلم أنا لا علاقة لي بأسرتي منذ فترة، وكوَّنت صداقاتي في وقت متأخر من العمر وكنت أفضِّل دائمًا اللقاء خارج المنزل حتى لا تتعدد الأسئلة لماذا أعيش بمفردي وحتى لا أسمح لأحد أن يسألني أسئلة شخصية، مثل لماذا لم تتزوج .. إلخ.

قال كريم مداعبًا:

- لكني أعرفك منذ الطفولة وأعرف عنك كل شيء، لماذا لم تدعني طيلة السنين الماضية؟

تنهّد قائلًا:

- لأني دائمًا كنت أفضِّل ألا نكون بمفردنا حتى لا نستحضر الماضي.

- وماذا جدَّ الآن؟

- الآن أريد أن أتكلم عن الماضي، تحديدًا عن تلك الواقعة التي تعلمِها.

اندهش كريم وعقد حاجبيه في اهتمام وهو يسأل:

- ولماذا الآن تريد التحدث؟

- حدث لي موقف في عملي ذكَّرني بكل شيء وشعرت أني أريد أن أخرج ما حبسته بداخلي السنوات الطويلة الماضية، ربما أرتاح بعض الشيء.

- ما هو هذا الموقف؟

- سأرويه لك لكن في البداية دعني أزيح مافي قلبي لن أجد من أأتمنه على أسراري مثلك.

صمت كريم ليحثه على قص الرواية...

(11)

اعتدل شريف في جلسته ثم بدأ يروي حكايته:

أنت تعلم ما عانيته من تربية خاطئة حذرة بدرجة كبيرة تجعلك تفكر فيما هو ممنوع قبل ماهو مسموح، كان بداخلي أسئلة عن أشياء كثيرة ولم يكن لدي صديق واحد أبوح له بما بداخلي، ذات يوم استفزني زميل لي بأنني لا أعرف شيئًا عن الجنس الآخر وربما يكن هُن يعرفن عنِّي ما أجهله أنا عن نفسي، جعلني كلامه آخذ منه (سي دي) يحوي فيلم يطلقون عليه الشباب أنه فيلم ثقافي.. أتفهمني؟

ابتسم كريم ثم قال:

- أكيد.

- بعد أن شاهدت الفيلم انتابني شعور مختلط مابين جديد أراه لأول مرة وبين كون ذلك لن يفيد، كان الوقت متأخرًا قررت أن أصنع لي كوبًا من الشاي الأخضر حتى تهدأ دواخلي.

احمرَّ وجهه وصمت قليلًا مما جعل كريم يشعل سيجارته وينتبه أكثر حيث شعر أن القادم شيء هام، استطرد شريف:

- عندما دخلت المطبخ وجدت أمامي فتاة بملابس قصيرة شفافة كانت تدير لي ظهرها كانت منهمكة في الطعام ولم تشعر بوجودي فوقفت أتأمل جمال جسدها وأنا لا أعرف من تكون.

قال كريم في عجل:

- ومن تكون؟ أهي ياسمين؟

- نعم، أنت تعلم كم كنا متحفظين مع بعضنا البعض وكم كانت محتشمة في ملابسها داخل المنزل حتى شعرها كانت تغطي معظمه، لذلك لم أتعرف عليها إلا عندما التفتت إليّ، انزعجت وأنا أحدق بها وارتبكت هي وجرت إلى غرفتها مهرولة، ذهبت أنا أيضًا إلى غرفتي ومرّ بذاكرتي كل ما عشناه أنا وهي، طريقة تربيتنا الخاطئة التي أبعدتنا عن بعضنا كثيرًا، ربما لو كنا أصدقاء ما احتاج كل منا أن يجد ضالته في شيءٍ آخر، أنا بدأت أشاهد أفلام إباحية وهي بدأت تتحسس طريقًا ربما يؤدي بها إلى أشياء غير محمودة، قررت أن اذهب إلى غرفتها أعنفها عما تفعله وأتقمص دور الأخ الأكبر مرة في حياتي، ذهبت إليها وأكاد أكون اقتحمت غرفتها لأول مرة، أمسكت بمرفقيها لأعنفها لكنها كانت قد عادت ياسمين أختي بملابسها المحتشمة وغطاء رأسها، جذبتها في هدوء وجلسنا على مكتبها، لم تخبرني لماذا رأيتها على هذا الحال فقد كانت خجلة من رؤيتي لها بهذا الشكل، وأنا لم أنتظر مبررًا لتصرفها هذا فقد اكتفيت بما توصل إليه عقلي، كل ماكنت أود فعله أن أحذرها من خطورة ما تفعل ومن عواقبه وأن أضع بيننا حجر الأساس لعلاقة صداقة، تحدثنا قليلًا بعد إغلاق هذا الأمر ثم انصرفت إلى غرفتي، لكن النوم لم يزر جفنيّ فجلست أمام نافذة غرفتي أتطلع إلى نور الصبح ثم أغلقت النافذه وتهيأت إلى النوم، لكني

سمعت همهمة خرجت واتجهت في اتجاه الصوت الذي أدركت أنه ينبعث من غرفة ياسمين، فتحت الباب..

صمت مجددًا فأدرك كريم أنه على وشك سماع دوي قنبلة!!

استجمع شريف شجاعته وقال:

- وجدت ياسمين مكبَّلة الأيدي والأرجل وأغلق فمها بقطعة من حجابها، وأبي فوقها وقد نال منها.

اتسعت عينا كريم وانفرج فمه وكادت أن تسقط سيجارته على الأرض قال بصوت منخفض:

- الحاج حسين..

قال شريف في أسى:

- نعم..

صمت كريم وأطرق رأسه وشعر شريف أنه ربما لم يصدقه فأكمل:

- إذا لم تكن تصدقني، فكِّر كيف حُفِظَت القضية؟

استدار كريم في سرعة كأنه انتبه وحثَّ شريف على مواصلة الحكاية.

أكمل شريف حديثه قائلًا:

- عندما رأيت وضعهما شعرت للحظة أن الغرفه تدور بي بسرعة ثم توقفت فجأة لتقذفني أمامهما أتطلع بهما وأنا لا أصدق ما أرى، فهناك عينان يسيل منهما الدموع وبهما رجاء أن أنقذ صاحبتهما، وهناك عينان أخريين مليئتان بالحقد وكأنها لم تفعلا شيئًا، لم أستطع النطق أو السؤال فكل شيء بيّن امامي، أول ما فعلت أن اندفعت نحوهما ودفعت أبي بقوة ثم جلست بجوارها حلّيت وثاقها وأنا أنظر إلى بقعة الدماء التي تكونت تحتها دون أن أتفوه بكلمة، تلك البقعة جعلت مني ثورًا ثائرًا بمجرد أن حاول أبي أن يقترب مننا حتى دفعته بقدمي بقوة لم أعهدها من قبل فارتطمت مؤخرة رأسه بالحائط وتساقطت منها الدماء، نهض بالكاد وهو يلهث وضربني ومزق ملابسي ثم بدأ يصرخ وتعالى صوته، لم أهتم بتفسير ما يفعله، كل ماشعرت به خوفًا تجاه أختي فأخذتها بين أحضاني لأول مرة منذ أن كنا طفلين وظللنا جالسان ننظر إليه في خوف، استيقظت أمي فاستغل الأمراض التي تراكمت عليها وبدأ يروي القصة كما عرفتها، وما إن خرجت والتفّ حولها الجيران حتى أغلق باب الغرفة وأخذ في تهديدنا ووعيدنا، أمي تحتاج إلى علاج بمبلغ ليس بالهين كل شهر، فهدد بطلاقها وعدم الإنفاق عليها وقال إنه يستطيع بماله أن يداوي ما تظن أنني فعلته أما إذا علمت الحقيقة فلن أستطيع أنا أن أداويها، ظللنا صامتين، خرجت من الغرفة واتجهت إلى غرفتي فتبعني، وبعد أن أفرغ ما في جعبته، قرر أن يلقي الورقة الرابحة، فقال إنه مازال عند وعده بأن يهديني عيادة ابدأ بها مشواري المهني، قلت له إني سمعت أمي تصر على تحرير

محضر فأجاب أن الطبيب الشرعي سيثبت أنني لست الفاعل وإذا لم تتهم ياسمين شخصًا آخر ستحفظ القضية وأنه بعلاقته بمسؤلين سيكون المحضر طي الكتمان .

اندفع كريم قائلًا:

- إذا كان الأمر هكذا فلماذا لم تعترض ويتحمل هو نتيجة خطئه ويظل الأمر طي الكتمان أيضًا!!

- في البداية من أجل أمي.

نكس رأسه وهو يقول :

- ثم طمعي ماجعلني أوافق.

- ولم تفكر في مصير ياسمين، كيف تعيش معه في منزل واحد؟

- هذا ذنبي الذي سيلازمني إلى أن أموت، أنني فكرت بنفسي وتركتها بين يديه، خاصة بعد أن تركت المنزل وأستأجرت منزلًا جديدًا، فأصبحت وحيدة حتى من جبان مثلي.

- هل انقطعت أخبارها عنك منذ ذلك اليوم؟

- تقريبًا، إلى أن جاءت منذ فترة ليست ببعيدة وواجهتني بخِسَّتي معها.

وما دار بيننا ليس حوارًا بقدر ماهو لوم وعتاب على مروءتي التي فقدتها عندما تخليت عنها.

كنت جالسًا في عيادتي عندما اقتحمت مكتبي وخلفها الممرضة تحاول منعها، عندما رأيتها اضطربت لم تعد ياسمين التي عاهدتها، أصبحت نظراتها أكثر حدة، وحديثها أكثر جرأة، وملابسها تحدد جسدها، لم تعد كما كانت، خرجت الممرضة دون أن تقول شيئًا بعد أن رأت الدموع تأبى الخضوع، فقالت ياسمين بتهكم :

- مبروك العيادة، ولو أن التهنئة تأخرت قليلًا، معذرة فلم أعرف عنوانها بل لم أكن أعرف عنوانًا لك .

- ...

صمتُّ ولم أستطع أن أتفوه بكلمة واحدة، كنت واجمًا أمامها كالطفل المخطئ أمام أمه، دخلت وهي تنظر إلى دموعي التي لم تقتنع بها وقابلتها بلوي شفتيها، جلست وهي تنظر حولها وتقول:

- هل هذا ثمن بيع شرفك؟

- ....

أكملت بسخرية وهي تشير إلي بالجلوس :

- ثمن لا بأس به، علمت أنك أصبحت من أصحاب الأموال بسبب تلك العيادة التي بعتني من أجلها.

ثم نظرت إليَّ نظرة حادة وهي تقول:

- إذن أنا شريكتك في كل ماوصلت إليه!!

هنا فقط زارتني بعض من جرأتها فقلت بصوت مكسور وأنا أجلس ببطء:

- إذا كان هذا ثمن أن تسامحيني ...

لكنها قاطعتني وهي تخبط بيدها على مكتبي:

- لن أسامحك طيلة حياتي.

صمتت قليلًا وهي تستند إلى ظهر الكرسي ثم قالت :

- جئت إليك عندما أزلت القضبان من حولي.

ابتسمت بشماتة ثم قالت :

- مات أبوك!!

رسمت ابتسامة صفراء وهي تتهكم عليَّ:

- ألن تبكي عليه؟!أليس هو صاحب الفضل في نعمتك هذه؟!

ألمتني كلماتها ولكن فضولي دفعني لسؤالها:

- متى وكيف مات؟

نهضت من مقعدها وخطت خطوتين نحو الباب ثم دارت حول نفسها إلى أن توقفت في مواجهتي وبنظرة قاتلة قالت :

- قتلته!!

وقفت في مكاني وأنا لا أصدق واتسعت عيني من أثر ماتروي، لم أصدق أنها تفعل ذلك، بقيت صامدًا، ظللتُ منتظرًا أن تكذِّب ماقالت لكن ملامح وجهها تبدلت لتخبرني بصدق الحكاية، انهارت على مقعدي ومازالت عيني تحاول ترجمة الإشارات المنبعثة من عينيها، لم أفهم تلك النظرات برغم ادعائي الدائم بمعرفتي بلغة العيون، لم أفهمها قَط إلا عندما جلست أمامي واستطردت بصوتٍ حزينٍ ودموع تنهمر لأول مرة منذ أن قدمت إليّ:

- ظللت سنوات وسنوات أخضع لرغبته، كانت لدي دوافع ربما لا تليق لمجهولة المستقبل مثلي لكنها ما كانت تبقيني حيّه أتنفس، حاولت أن أصنع أهدافًا أعيش من أجلها، رغم تمثيله بأنوثتي بين الحين والآخر كنت أجاهد تقززي منه وأمدّ له يدي وآخذ مصاريف جامعتي الخاصة، كان الهدف الأول الذي صنعته هو الانتهاء من دراستي، ثم

صنعت هدفي الثاني أن أعمل وأجتهد حتى يصبح راتبي يكفيني وأمي ويفي بمصاريف علاجها الباهظة، كان أحيانًا يهيء لي الشيطان أن أزهق روحي بيدي، لكن لم تكن لدي الشجاعة أن أقابل ربي كافرة مهما عانيت في حياتي.

فإذا كنت ترى مافي حياتك لا يستحق أن تعيش من أجله فأعلم أنك بتخلصك منها تسير نحو المجهول..

طال انتظاري للهدف الثاني ولم يتحقق، رغم اجتهادي في عملي إلا أن ما على كتفي من مسؤليات يفوق ما بيدي من مال، لذلك صنعت لنفسي هدفًا ثالثًا وهو أن أتزوج !!

ضاقت عيني وهما ينظران إليها وكأنها تتحدث لغة لا أفهمها، بينما هي تكمل:

- كان لي زميلٍ في العمل انتظرني سنوات طويلة،وكان لا يستطيع أن يخفي حبه لي وأنا كنت أبادله الحب رغم كل أوجاعي ولكني لم أصارحه أبدًا، لكنه كان يعلم بكل ما بداخلي، حتى صرنا حديث زملائنا وترددت على مسامعي كلماتهم التي يستنكرون بها رفضي له، فقررت أن أخوض التجربة.

أعيش مافاتني، أرمم أنوثتي، قررت أن أحيا.

تنهدت طويلًا ثم أكملت:

- برغم حبه الشديد لي لكني لم أقوَ على سرد حكايتي له، ربما تبدل حبه بحُكم العادات والتقاليد أو ربما لم يصدقني وأصبح في نظره عاهرة، قررت أن أخضع لعملية جراحية لترقيع ذلك الغشاء الذي يثبت براءتي، لكن مشكلتي كانت تكمن في أمي، كيف أتزوج وأتركها، ربما لو فعلت لنفَّذ تهديده لي وطلقها وألقى بها بعيدًا عن عيني، ولا أستطيع أن آخذها معي؛ فزوج المستقبل ليس ثريًا.

لم يكن أمامي خيار سوى أن أتوسل إليه أن يتركني وشأني ويأذن لي بالزواج بل واقترحت عليه أن يتزوج، لكنه فاجأني بالرفض وبأنه لا يرغب بغيري .

كم كان حقيرًا.. آكلًا لأعراض البشر..

وضعت يدي على فمي وكدت أتقيأ عندما سمعت كلماتها، حتى الآن لم أفهم دوافع- ما يدعى أبي - أن يفعل مافعل ويستمر بذلك وهو الرجل الذي ألبس ابنته الحجاب في سن صغيرة حتى قبل أن تبلغ!!

لأول مرة منذ حديثي معها تنظر إلى نظرة بها صلة دم، نظرة أخوة، ثم أكملت:

- بعد يومين أتى إلى حجرتي ليذكِّرني بتلك الليلة التي اغتصبني بها، كان ينظر لي نظرات مخيفة، لم أتحقق من مرادها، أهو سيضربني أم ينهرني لشيء لا يمكنني تذكُّره الآن، ثم جذبني من يدي ليكبِّلها وجذب حجابي الذي انفلق بيده والموضوع على سريري وكمم فمي، كان غريب

الأطوار، يروي لي أثناء فعلته مادفعه إليَّ وكيف بدأت رغبته بي، فقد كان يختلس النظر إليَّ عندما أختلي بغرفتي وأرتدي ثياب أمي القديمة، كان يراني في هيئة جديدة ولا يشعر أنه أبي.

وحتى نال مراده لم يتوقف عن الكلام.

لكن في تلك الليلة لم يستطع تكبيلي فقد دفعته بكل قوتي بعد أن رأيت تلك النظرات تتكرر في عينيه، كنت أول مرة أفعلها، ربما رغبتي في بناء حياة جديدة وعدم استسلامي لواقعه هو ما شجعني على ذلك، جلس وشوقه لي يأخذ من أنفاسه، فقال بأنفاس متقطعة:

سأتركك تتزوجين وأستمر في دفع مصاريف علاج أمك ولكن في حالة واحدة، أن نظل معًا. غير ذلك لن يجدي شيء، سأبقى عليكِ وعلى أمك حتى آخر يوم في عمري.

وهنا تقيأت بالفعل بجوار مكتبي وانتظرت هي حتى أفرغ ما في جوفي ثم قالت:

- لم أتمالك نفسي ولم أشعر بما أفعل إلا عندما وجدته جثة هامدة، ووجدتني بجواره وأنا أمسك بتمثال حديدي كان على مكتبي وانهلت على رأسه به وأنا أصيح بكل جوارحي وبأعلى صوتي: "وهذا سيكون آخر يوم في عمرك".

- وكيف تخلصتِ من الجثة؟

- لم أتخلص منها، أبلغت الشرطة.

- كيف ذلك وأنتِ مازلتي حُرَّة وأمامي الآن، أهربتِ؟

- لا، بل لم يتهمني أحد بقتله.

اشتد غضبي من عبثها معي فصحت بها:

- ماذا تعنين بحديثك، كيف ذلك؟

- بعد أن سالت دماؤه وقطعت أنفاسه، وجدت أمي تفتح باب غرفتي وقد كانت واقفة خلفه منذ أن دخل، احتضنتني بشدة وعرفت ماعانيته طيلة السنوات الماضية من أجلها، وما منها سوى أن جلبت قطعه من القماش ومسحت بها آثار يدي الموضوعة على التمثال الحديدي وأمسكت به بكلتا يديها وانهالت عليه في أرجاء جسده، وأول كلمة نطقتها: أبلغي الشرطة، شعرت بكل ما أرادت قوله دون أن نتحدث، شعرت أنها ترد لي مافعلته من أجلها.

- إذن أمي الآن في السجن؟!

- لا تخف كثيرًا هذه الحادثة مرَّ عليها أكثر من عام وعندما تمالكت نفسي جئت إليك، فلا تخف على سمعتك أو على عيادتك ومركز الخصوبة اللذين يدرّان الأموال، لا يهمني أن تعرف أني قتلت أباك وأن أمك في السجن.

نظرت إليّ باحتقار وقالت:

- جئت من أجل شيئين أولهما أن أراك بعد أن تعرف نتيجة طمعك وخوفك وبيع عرضك وشرفك، جئت لأرى تلك النظرة بعينيك، نظرة الهلع بأنك فعلت كل ذلك.

كنت حقًا كما قالت، أشعر بداخلي بهول مافعلت، رجعت بذاكرتي لسنوات طويلة مضت، أحدّث نفسي ماذا لو كنت رفضت دعسها بنذالتي، ربما كان أبي سينفّذ تهديده ويحرمنا جميعًا من أمواله، ربما لم أصبح طبيبًا معروفًا ولم تكمل ياسمين دراستها الجامعية، ربما ماتت أمي من قلة النقود، لكن بالتأكيد أنني كنت سأربح شعوري برجولتي أمام نفسي وأمام أختي وأمام كل من عرف حكايتنا. وهذا ليس قليل ، هذا الشعور الذي كان ينقصني السنوات الماضية وهو ماباعد بيني وبين النساء، هو ما باعد بيني وبين طفلٍ يحمل اسمي وأسرة تؤنس وحدتي، هذا ماباعد بيني وبين الناس جميعًا.

- وماهو الشيء الثاني؟

- الشيء الثاني أنها اختارتني حتى أصلح غلطتي.. قالت:

- أما الشيء الثاني الذي جئت من أجله فهو لأنك من ستقوم بترقيع غشائي.

ثم ابتسمت بسخرية وهي تكمل:

- غشاء العفة والطهارة!!

أصابتني جرأتها في الحديث وأوجعتني كلماتها، أوجعني شعورها أنها ليست عفيفة ولا طاهرة بسبب ذنبٍ لم تقترفه، لجّمت الكلمات في حلقي عندما وقع اختيارها عليّ، لم أستطع الرفض ولم أستطع القبول، كيف أقوم بمثل تلك النوعية من العمليات بعدما وصلت إليه، وفوق كل ذلك كيف أقوم بها لأختي.. لا لا لن أستطيع.

قلت لها في توسل:

- أعرف أطباء يقومون بهذه العملية بمهارة، أما أنا فلم أقم بها من قبل، لذلك من الأفضل...

قاطعتني بحدة وبصوت عالٍ:

- أنت من ستقوم بها، ستدفع الثمن مثل أبيك، وتحمد الله أن ماستدفعه لن يكون حياتك مثله!!

لم أخف من تهديدها فهي ليست عنيفة بطبعها، ولو أنني لا أثق كثيرًا بذلك فلقد غيرتها سنوات القهر التي عاشتها، لكني أشفقت عليها مما تعانيه بداخلها وإذا كان هذا انتقامها الذي سيريحها فسأساعدها فيه، قبلت أن أقوم بإجراء العملية لها . وعندما كانت بين يديّ كنت أشعر بروحي تختنق، كل لحظة أثناء منحها الرمز المزيف لعفّتها كانت

تذكِّرني بما حدث حتى بدأت يدي ترتعش ولكني حاولت أن أتماسك من أجلها.. .فقط من أجلها..

ولم أرَها منذ ذلك الوقت..

شعر كريم أن شريف قد أسدل الستار عن قصته وأنه أكتفى بما تذكَّره من آلامٍ وأحزان فقال له:

- لكنك حتى الآن لم تذكر لي ماجعلك تريد أن تتحدث؟

زفر بقوة وكأنه يعود من زمنٍ بعيد، ثم رشف من كوب الشاي الذي أصبح دافئًا:

- جاءت إليَّ امرأة وزوجها لكي يقوما بعملية حقن مجهري وقبل إجراء العمليه وبعد أن أصبح لديهما أجنة مجمدة، توفي زوجها.

- ثم ماذا؟

- جاءت لي بعد موته تريد أن تزرع تلك الأجنة.

- كيف ذلك؟لماذا خطر ببالها أن تفعل هذا؟ وأنت هل قبلت؟

- رفضت في البداية ولكن فوجئت بها تبتزني بقصتي القديمة تلك، بل وأتت بالمحضر الذي تم تحريره منذ أكثر من ثلاثة عشر عامًا، من أين علمت بتلك القصة؟!هذه القصة لم يعرف بها سوى عدد قليل جدًا بالإضافة إلى أنها قصة قديمة؟! حقًا أريد أن أعرف.

كادت دقات قلب كريم أن تسمع، لثوانٍ قليلة لم يشعر بما حوله ولم يرَ سوى لونًا أسود يحيط به، فهاجر تعلم هذه القصة، أراد أن يزيل الشكوك التي أحاطها بها، رسم ضحكة مصطنعة وهو يقول:

- بالتأكيد هي ليست جميلة وتخشى ألا تتزوج ثانية أو أنها في أواخر الأربيعينيات وهذه هي فرصتها الأخيرة في الحمل.

- بالعكس هاجر في ريعان شبابها وامرأة جميلة، لكن أرى أن السبب هو طمعها في ميراث زوجها.

توقفت الضحكة على شفتيه، وعاد الاسم يتردد على أذنيه مرة أخرى .. هاجر!!!!!

سأله بصوت مرتعشاً:

_ هل أجريت لها العمليه؟

_ نعم وهي حامل الآن

نهض في ثقل مواريًا دموعه، سأله شريف أن يبقى فمازال يريد التحدث معه، لكنه حاول أن يبدو طبيعيًا وهو يلح في الانصراف .

***

كان يقود سيارته كآلة تحفظ الطرق، ترى شيئًا أمامها فتقف غير مفسِّرة ما إذا كانت سيارة التي أمامه أم شخصًا يعبر الطريق، أم قطة ضالة، شعر بالمرارة والحسرة والغباء.

مرارة الخيانة.. وحسرة الحب الذي ضاع.. وغباء مشاعره التي انجرف وراءها..

فقدْ ساقته مشاعره إليها ورسمت معها طريقًا مليئًا بالأحلام ليفيق على كابوسها المزعج، وجد نفسه أمام البناء الذي تقطنه دون أن يشعر، فلم يمر وقت طويل إلا وكان يدق باب منزلها، فتحت الباب على غير العادة والدتها، ابتسمت ابتسامة بسيطة وسألته عن حاجته، فأجابها بجفاء أنه يريد هاجر وعندما علمت من هو شعرت أنه عرف الحقيقة.

دعته إلى دخول المنزل وذهبت تبلغ هاجر، دخل بخطى وئيدة تأبى الدخول، يتطلع هنا وهناك ثم توقف أمام صورة زفافها مع زوجها المتوفي، رآها عروسًا كما كان يتمناها لنفسه، جميلة.. أنيقة.. جذابة.. الفرحة بعينيها لا يضاهيها شيء.. كادت دمعة تتساقط منه لكنه شدَّ جزعه بقوة وكأنه يقول لدموعه توقفي.. رغمًا عنه اتجه بصره إلى زوجها الذي كانت عيناه تلمعان من فرحته بها، حدَّثه قائلا: "أخذتها قبل أن أعرفها فلن ألومك.. لكن لماذا تسرقها الآن؟ هل من سرقها حبك أم مالك؟!"

سمع وقع خطواتها فأغمض عينيه وكأنه يمحو كل ما دارَ في نفسه، أو ربما لينحي حبها جانبًا قليلًا، فقط إلى أن يستعيد كرامته ثم يتركه ينهش قلبه مرة أخرى كما تعوَد منذ أن تملكت منه.

وجد بصره يتجه أولاً إلى بطنها التي لم تتغير في شيء لكنه لم يستطع إزاحة عينيه عنها.ثم نظر إلى وجهها فوجد عليه علامات مختلطة لم يستشف منها سوى الأسف فقد فهمت من نظرته تلك أنه عرف بقصتها أما علامات الحب فقد محاها غضبه فلم يرَها، بدأت الدموع على وجنتيها تسيل لكن دموعها لم تحرك فيه ساكنًا وعاد ينظر إلى جنينها في بيته الأول، إلى أن وضعت يديها على بطنها وهي تضغط عليها بشدة، نقل بصره إلى عينيها الغارقتين في دموعهما وقال بصوت مليء بالقسوة والجفاء:

- مبروك، هل تريدين ولدًا أم بنتًا!!!

قالت من بين دموعها:

- كيف عرفت؟

- ....

- كريم أنا أعترف أنني في البداية...

قاطعها بسخرية:

- لا تكملي، أنا أقول لكِ، مثل الأفلام العربية تمامًا، في البداية كنتِ تعرفينني من أجل تنفيذ خطتك لكن، أحببتني، صح، أليس هذا ما كنتِ ستقولينه!!

- أقسم لك إن هذا ماحدث، أنا أحتاج إلى مالٍ وأنت أيضًا لأننا...

علا صوته واحتد عليها قائلًا:

- لاتقولي أنا وأنت..

اقترب منها وأمسك ذراعها بشدة وهو يستطرد:

- لا تقوليها أبدًا، لن تجمعني بكِ حتى جملة كهذه.

انخرطت في البكاء وهي تتوسل إليه:

- أرجوك اسمعني، لقد أحببتك من كل قلبي، حتى إن حبي لزوجي تعجبت أنني أسميته يومًا حبًا فأنت...

ترك ذراعها وانهار على أقرب كرسي وصل إليه ودفن وجهه بين كفيه وانخرط هو أيضًا في البكاء، لم يتحمل أن يضيع حبًا أمتلكه مرة أخرى، كان حبه الأول الضائع كفيلًا بأن يدمر خلايا قلبه إلى أن نمت مرة أخرى مع حبه الثاني لها.. والذي يضيع الآن.

جثت على ركبتها أمامه وهي تزيح يده وتمسك بذقنه لترفع وجهه إليها، بينما هو يغمض عينيه، لم يرد أن يراها أو ربما لم يرد أن ترى دموعه،

تلك الدموع التي كان يتركها تسيل أمامها في سلاسة عندما يشعر بضيق، أما الآن فيشعر أنها غريبة عنه لايجب أن ترى لحظات ضعفه.

- هل تذكر كيف عرفت قصة شريف، جاءت عن طريق الصدفة، فإذا كنت قد عرفتك لهذا السبب لكني لم أسعَ إليه، فقد أنساني حبك ماعرفتك من أجله.

تمالك نفسه قائلًا :

- ومن قال لكِ أني أشك في حبك لي رغم رفضي للطريقة التي سعيتِ إليَّ بها؟

- إذا أنت تعلم جيدًا مشاعري تجاهك.

- نعم أعلم، لكن مشاعرك لم تتغلب على طمعك!!

- ....

صمتها قطع حيرته فتأكد أن مافعلته من أجل المال.. فقال:

- هل تعلمين لماذا أبكي؟

قال بصوت دافئ :

- لأني سأفقدك.. وسأفتقدك.

- بإمكانك ألا تفقدني، فإذا كنت تعلم أني أحبك فهل تغفر لي؟

- أنتِ لم تفهميني بعد.. لن أستطيع أن أبقى مع امرأة تفضل المال على حبي، لقد زرعتِ الخوف منك بداخلي.. هل فكرتِ أن تصارحني بكل شيء وتضحي بالمال من أجلي؟

- نعم فكرت.

- ومع ذلك فضلتِ المال عليَّ.

- ...

كان صمتها يحرقه، لم يكن أي كلام منها سيغيِّر ما يشعر به لكن ظل صمتها يطعنه، وكان قلبه يهمس بين ضلوعه:

أرى أن مابيننا يحتضر.. فأي كفن تريدين .. كفن أبيض كحُبٍّ كان.. أم كفن أسود كنهاية ستكون؟

نهض وهو يتخطاها فنهضت تمسك بمرفقه برقة وقالت له:

- مافعلته في البداية كان من أجلي، أما استمراري به فكان من أجلي ومن أجلك أيضًا، من أجل حياة تجمعنا سويًا.

قال بصوت خافت ملأه اليأس والشجن:

- لا أستطيع أن أصدقك.. منذ وقت قريب كنتِ في قلبي فقط.. أما الآن فأصبحتِ بين عقلي وقلبي .. ألم أقل لكِ.. لقد زرعتِ الخوف منكِ بداخلي.

ارتعشت يده وهي تبعد يدها عنه وخطا نحو باب المنزل ثم توقف وقال لها:

- بالمناسبة، لقدابتزيتِ الشخص الخطأ، شريف لم يغتصب أخته..

ألزمتها المفاجأة الصمت قليلًا ثم قالت:

- كيف ذلك وأنت من رويت لي تلك القصة!!

- لم أكن أعلم الحقيقة، جعلتِه يقوم بفعل بالإكراه بسبب ذنبٍ لم يرتكبه، لكن ربما ارتكب ذنب آخر.

- لم أفهم، ماذا تعني؟!

هزَّ رأسه في لامبالاه قائلًا:

- لاشيء.. لا تبالي.

همَّ يخرج من الباب لكنها أستوقفته قائلة برجاء:

- كريم!!

التفت قائلًا في مودة:

- إن احتجتِ شيئًا لا ترددي أن تطلبيه منّي.

أصبحت الدموع أكثر غزارة وهي تقول:

- وإن احتجتك أنت، وإن اشتقت إلى حبك؟!

حدّث نفسه قائلًا: لا تكتمل أوجاعي إلا بك، لي فيكِ وجع أتمنى أن يدوم..

لكنه أجاب والدموع تكاد تحرق عينيه من ألم الفراق:

- لقد وعدتك بألا أكرهك، وذلك قبل أن أعرف أي شيء، وحتى بعد أن علمت لن أكرهك لكنك.. لن تجيدني.

سار بخطوات سريعة خشية أن تستوقفه مرة أخرى، خشية أن يضعف فيضمها إلى صدره فينسى ماقرره في التو، خشية أن يصبح للمرة الثانية متلقيًا لقرار الفراق..

ربما لو أصبح هو من يقرر الفراق.. يمنح قلبه قوة لتحمُّل وجعه.. وجع الفراق..

***

ذهب إلى مكانهما المفضل، وكأنه يريده أن يشاركه لحظة وداعها كما شهد لحظات قربها، جلس ينظر إلى أرجاء المكان الذي شهد ذكرياتهما الجميلة وبعينيه الدموع تترقرق ولولا تواجُده في مكان يخالطه به الناس لذرف دمعًا لم يعرفه من قبل، فبرغم ما فاضت به دموعه أمامها فهي لم تنتهِ بعد، جلس يتذكر كل ماكان بينهما،كانت تتركه يبحث في بحر أنوثتها وتحاول دائمًا تحذيره ألا يعبث مع موج غيرتها فهو

مِلكٌ خاص لها، كانت غيورة وكان غيور وكاد الحب يملّ منهما،ذات مره جرحها دون قصد فقالت: رصيدك عندي يكفي ألف جرح وجرح، فاجرح كما تشاء

كان دائمًا يتعجب من لحظات السعادة التي تغلب لحظات العذاب، لم يقتنع يومًا بأن الحب بدون عذاب يكون حبًا صادقًا خالصًا، أما الآن فقد علم.

علم أن الحياة منحته السعادة دفعة واحدة حتى تلقيه في الآلام إلى الأبد.

ضاعت كل أحلامه معها وكل ما كان يحلم به، ولم يتبقَ له سوى الحقيقة التي قرر أن يستمر بها.. زوجة لا يحبها.. وطفلان يعيش معها من أجلهما..

نهض وهو يجفف دمعه خانته وسالت من عينيه، قال وهو يحدثها كأنها بجانبه:

الأن فلتقتلعي شوقك من صدري وترحلي،

***

كان شريف شاردًا في مأساته ومأساة أسرته، وكان يحدث نفسه.. فقدت أختي عذريتها وانهارت حالتها النفسية في بطءٍ مع مرور السنوات حتى قتلت أباها.

قُتِلَ الأب وهو مازال يريد علاقة محرَّمة، أهداه الله سنوات طويلة على عمره ربما يتوب ويعود إليه، لكنه أصر أن يموت على معصيته، وبيد ابنته.

دخلت أمي السجن لتمنح ابنتها بعضًا من الحياة التي سُلِبَت منها، دخلت بحالة صحية متدهورة وحتمًا ستتدهور أكثر..

أما أنا فأعيش جسدًا بلا روح..

مال هذا الشيطان الذي بَدأ في الآونة الأخيرة يغزو البيت ويزيّن تلك العلاقات لضعاف النفوس، وهل نلوم الشياطين فقط على ذلك أم نلوم أنفسنا أننا تركناها لهم!!!

فأصبحت نفوس تستحل لغرائزها أجسادًا ضعيفة من لحمها ودمها..

وكأننا عدنا إلى الجاهلية..

سمع طرقات باب منزله وذهب يفتحه فوجد ياسمين أمامه بصحبة زوجها وطفلتها الرضيعة، ابتسما لبعضهما والدموع تتلألأ في عينيهما في حزنٍ وفرحٍ في آنٍ واحدٍ.. وبدأت بينهما حياة جديدة..

***

برغم أنه ساعدها في خلق عذريتها مرة أخرى إلا أنها لم تستطع خداع زوجها فلم يصبح الأمر يتعلق بتلك النقطة فقط.. فلقد أصبح لديها أم في السجن، وأب مات مقتولًا، وأخ لا يعرف عنها شيئًا ولا تريد هي أن

تعرفه، اعترفت له بكل مالديها، وعرف سبب رفضها له في السنوات الماضية، وتركت له حرية الأختيار.. فاختارها.

حاول حتى ليلة زفافهما إقناعها أن تبلغ أخاها بزواجها وتصفح عنه لكنها أبت.. لم ييأس وظل يحاول معها إلى أن رقَّ قلبها..

اكتفت بأن تروي لشريف بشكلٍ سريع كيف تزوجت، ولم ترد أن تأتي بالماضي أكثر من ذلك، ولم حتى تذكر كلمات معتادة عند تصفية الخلافات فلم تعاتبه على مافعله، وهو أيضًا اكتفى بحديثها ولم يطلب منها العفو فمجيئها إليه يعني الصفح عنه، فصمت حتى لا تتجدد الجراح للمرة المائة.

***

كانت حالته النفسية جيدة للغاية، باتت في المنزل طفلة صغيره تمرح هنا وهناك، ماعاد المنزل بسكونه القاتل وكأن لا يسكنه أحد، أصبح كل شيء في غير مكانه، الصغيرة لا تترك شيئًا إلا وتجذبه فتطرحه أرضًا، أصبح المنزل في فوضى لكنه لم يحاول إعادة ترتيبه وكأنه يخشى أن يفقد الروح الجديدة التي سكنته بعد سنوات طويلة..

أغلق عيادته واعتذر عن كل مالديه من أعمال واستضاف أخته وزوجها وابنتهما في منزله، وكان لا يخرج إلا معهم، ولا تنام الصغيرة إلا على ذراعيه..

جلست الصغيرة في عربتها وجلس شريف أمامها على ركبتيه يلقمها في فمها بصبرٍ وحبٍ ودلال وكأنها طفلته التي كان يتمناها، زرعت حبها في قلبه سريعًا، وتعلقت هي به سريعاً أيضًا..

سألته ياسمين القادمة من المطبخ:

- ألن تذهب إلى عملك اليوم أيضًا؟لقد انتهت الإجازة منذ يومين.

التفت إليها ثم عاد يلتفت إلى الصغيرة هو يضع الطعام في فمها قائلًا:

- سأذهب اليوم إلى العيادة ليلًا.. لولا إلحاحك ماكنت لأذهب.

***

كاد أن يستقل سيارته لكنه أغلق بابها عندما رأى هاجر أمامه ببطنٍ منتفخة ووجهٍ شاحبٍ وجسدٍ نحيلٍ، استوقفته قائلة:

- لا أريده

- ماهو .. الجنين؟

- نعم الجنين.. لا أريده.

- ....

- كنت واهمة عندما اعتقدت أن المال هو الذي سيحميني من الحياة.أخترت مسار آخر غير الطبيعي وكنت مخطئه ..

ابتسم بسخرية قائلًا باقتضاب:

- للأسف لن يجدي ذلك الآن... سيكون في ذلك خطورة على حياتك.. أو ربما يؤدي إلى عقم ... عليكِ أن تختاري إما تعيشان سويًا أو تموتان سويًّا.. !!!

فتح باب سيارته وهو ينظر إليها قائلًا:

- لا أريد أن أراكِ مرة أخرى.

استقل سيارته وأخذ يبتعد بينما هي مازالت تنظر لمكان السيارة حيث كانت موجودة.

***

عادت حبيسة غرفتها، تقاطع الطعام والشراب إلا مايبقيها حيَّة، لا تتبع تعليمات الطبيب الذي يتابع حملها، لا تجالس أحدًا، لا تهتم حتى بتهديد إخوة زوجها برفع دعوة قضائية ضدها، ولا أيضًا اهتمت عندما حدثها محامي أخيها يطمئنها بربح الدعوة..

كانت دائمًا شاردة فيما كان وفيما سيكون، شعرت أنها صنعت من نفسها إلهًا، لكنه إله تنتفي صفاته مع صفات الألوهية، إله لا يعرف عن المستقبل شيئًا ومع ذلك يتلاعب به، كيف تحكم على شخص توق بأن ينجب!!كيف تحكم على مستقبلها مع كريم بأنه بدون مال لا

يصلح!!!كيف تأتي بطفل للحياه بطريقة شاذه ممكن أن تلوث سمعتها وتلوث سمعته معها.. فتظلمه حتي قبل أن يولد!!!

أعترفت لنفسها بما كانت تشعر به وتحاول الهرب منه دائما:

ليس هذا الجنين كما كنت أظنه يصبح طفلا فيشد عضضي بل كان جنين لوهم بداخلي، جنين لحمل كاذب، ترى فيه البطن وهي تنتفخ فتظنه حمل وما أنت إلا واهم!!!!

أصبحت الآن كمن لا تسير على أرض صلبة ولا حينما تقف تكون على أرض متزنة، وكأن رغبتها في حصولها على أموال زوجها التي اعتقدت أنها حقها، خطفتها إلى مكان لاتعرفه وسارت بها إلى مرسى الندم!!

***

جلست على سريرها في الظلام، تشعل قداحة كريم فتضيء الغرفه كحياتها التي كانت معه، ثم تغلقها فتظلم الغرفه كحياتها بدونه، هذا أكثر مايؤلمها، أن حياتها بدونه...

كان ذات يوم قد أهداها قداحته، وعلبة سجائره بعد أن انتهى منها، كما منحها أنينة من عطره المفضل، منحها تلك الأشياء كذكرى لعاشقة أنفاسه المحملة بعطره ودخانه، أعطاهم لها لكنه لم يقدر أن يبقي أنفاسه معها!!!

عرفت بعد فراقه أنها عشقته حتى أصبح لها وطنها الذي تعيش فيه وتحيا من أجل بقائه.. لكنها فقدت الوطن وأصبحت وحدها في العراء.. فالإنسان لا يفقد الوطن إلا حينما يفقد الإيمان بقضاياه ويفقد العزيمة التي بها يحارب من أجله حتى ينعم بدفء الحياة به، وهذا هو ماكان ينقصها أن تحارب من أجله، تحارب غريزتها وحبها للمال وتؤمن بأن وجوده يستحق الحرب..

فقد تملك قلبها في الليالي القليلة التي اقتسمتها معه..

كانت تظن قبله أنها تعرف نفسها جيدًا فوجدت أنها معه قد تعرفت على نفسها من جديد فدائمًا ماكانت تردد له: أنت من عرَّفني على نفسي..

كان يبكي على صدرها ويشكو منها إليها..

فتحت هاتفها النقال وهي مازالت في الظلام، ظلت تقلب في صوره التي احتفظت بها، وحدثته وكأنه يسمعها، وكأنهما في حديثهما الليلي المعتاد:

اشتقت ليوم أحادثك فيه حتى الصباح وتسمعني بقلبك، اشتقت لحديثك الناري عندما تأكلك الغيرة من شيء بسيط، لم أتوقع أن نفترق سريعًا هكذا، لو كنت تخبرني بموعد رحيلك ربما كنت..

لا .. لن يرويني رجل غيرك.. لو أمرت بذبحي لأسلمت لك رأسي في سَكِينة وهدوء.. أهون عندي من بعدك..

كنت تتحدث بكلمات هي لي وحدي وأتحدث بكلمات هي لك وحدك .. أما زلت على ذلك!!!

لماذا أعتقد أنك حقيقة عشت فيها!! ربما تكون وهمًا عشت به، ربما تكون رسائلنا المتبادلة التي كنت أعيد قراءتها، وهمًا، ربما لم تسكن روحي في يومٍ من الأيام!!

لا.. لن أخدع نفسي، أنت لم تكن وهمًا بل حقيقة في حياتي، حقيقة قررت أن أدعها تصبح ماضي، قررت ذلك بمحض إرادتي المسلوبة أمام المال!!!

تركت هاتفها ونهضت في ظلام لا يمحوه سوى أضواء السيارات في الشارع، اتجهت إلى الشرفة وهي تحمل أنينة عطره تستلشقها بقوة لتملأ بها رئتيها، ثم استطردت في حديثها إليه وهي مغمضة العينين:

سأنتظرك مادمت حية أتنفس عطرك وأحيا به داخلي، سأنتظرك تأتي فتنتشلني من ضعفي بدونك، وتعترف أنني مازلت وطنك كما أنت وطني، وتكسر عظامي بعناقٍ قويٍ أحيا عليه سنوات قادمة..

هل سيظل الانتظار هو رفيقي أم ستأتي قريبًا، فأنا لا أنتظرك وحدك بل أنتظر قدري معك، ياليتك بجواري الآن لتطمئن قلبي ..

فأنا أنتظرك وأنتظر طفلًا أعترف أنني ظلمته قبل مجيئه إلى الحياة، فهو سيؤمِّن لي المال أما أنا فماذا أعددت له .. لا شيء!!! حتى حبي له

لا أعلم هل سيقبله مني عندما يعلم كيف جئت به ودوافعي لذلك أم لا!!!

أنتظر قضايا ولا أدري على ماذا تنتهي!!!

أنتظر نظرات الشك من الناس في شرفي ونسب ابني !!!

أتعجب كيف كنت أنظر لتلك الأشياء بأنها ستهوّن أمام المال..

ربما كانت جملتي التي دائمًا كنت أرددها لأمي ولنفسي هي السبب: إذا حملتِ فهي إرادة الله، فإذا لم يرد فلن أحمل..

هكذا كنت أخدع نفسي وكأننا دائمًا نشعر بالراحة عندما نغلّف أفعالنا بإرادة الله..

أنا الآن أنتظر المجهول.. أنتظره بخوفٍ ولكن برضا.. لأني أستحقه!!

***

تمت

الكاتبه فى سطور

دعاء معوض من مواليد محافظة الجيزه. حاصلة على ليسانس آداب- جامعة عين شمس- قسم إعلام 2005، وتعد رواية رقصة الصلصا التي صدرت في معرض الكتاب الدولي لعام 2014 أول أعمالها الأدبية وهي رواية ذات طابع إجتماعي.

للتواصل مع الكاتبة

/https://www.facebook.com/groups/490476317723486

https://www.facebook.com/pages/276771505842148/رقصة-الصلصا



Noon_publishing@yahoo.com

ت-02-35860372   011-27772007

مسار آخر

قصة رائعة كُتِبَت بلُغَة أدبية رفيعة للغاية
رغم قسوة أحداثها ومأساوية الشخصيات
لكنها تعبِّر تعبيرًا دقيقًا عن نوازع النَّفْس
البشرية واختلالها أحيانًا إلى الحدّ الذي يقوَدنا
إلى الخَوض في المناطق المحرَّمَة فيها.. عبَّرت
عنها الكاتبَة بمنتهى الصدق الذي يجعلك تنبهر
وتُفَاجَأ أيضًا.. تحية تقدير للكاتبة ال
دعاء وللرواية التي تثير لديك تساؤ
لكنك لاتملك إلا الإعجاب

الروائي/شريف شوقي

الغلاف: مي يسري



